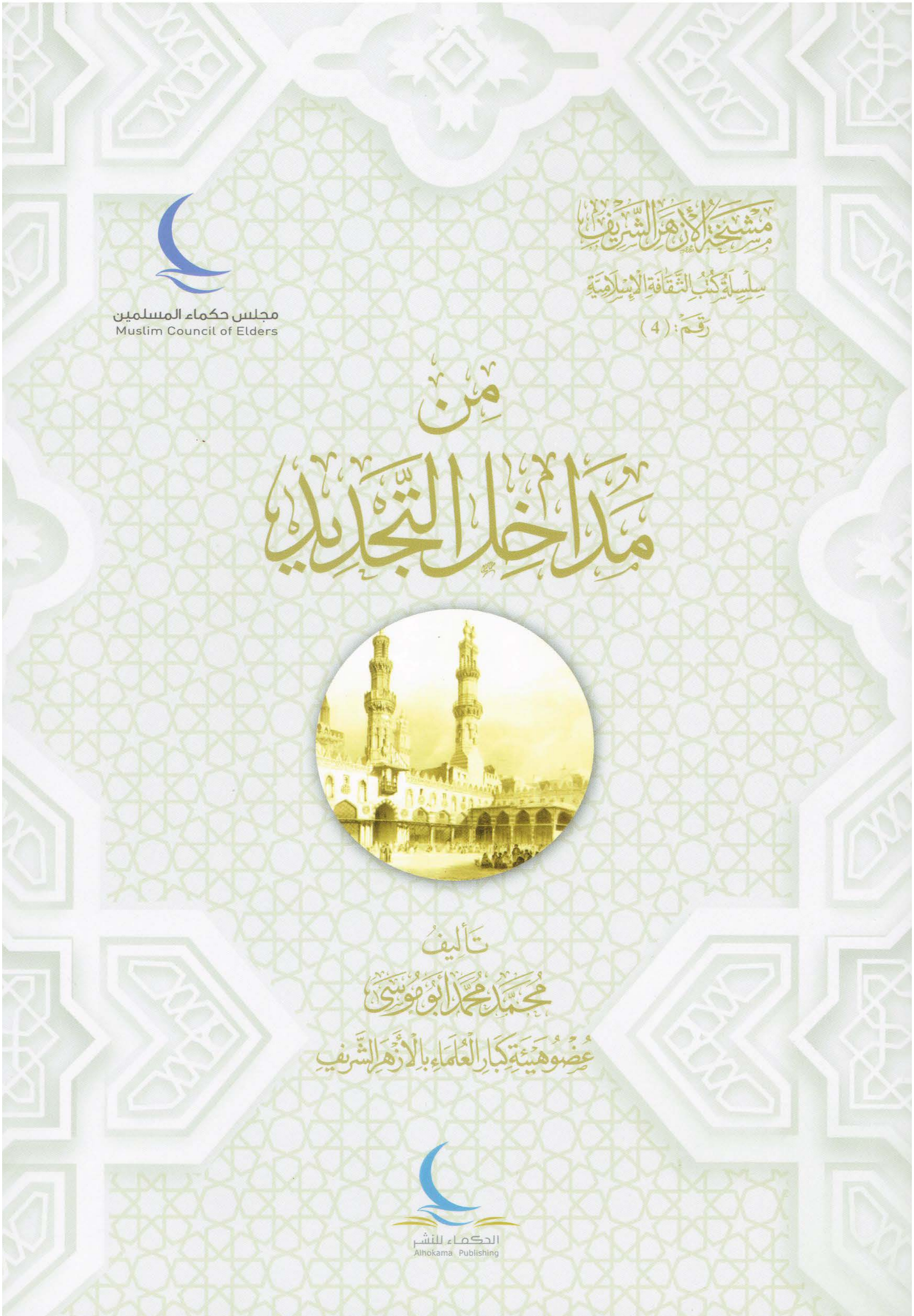
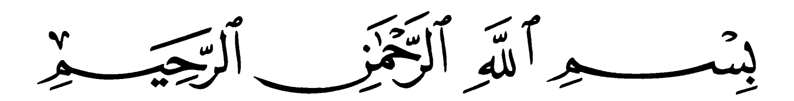


مشيخة الأزهر الشريف
سلسلة كتب الثقافة الإسلامية
رقم: (4)
مجلس حكماء المسلمين
Muslim Council of Elders
من
مداخل التجديد
تأليف
محمد محمد أبو موسى
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف
الحكماء للنشر
Alhokama Publishing


من
مداخل التجديد


بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ





من مداخل التجديد

تأليف

محمد محمد أبو موسى

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف





مجلس حكماء المسلمين
Muslim Council of Elders

الإمارات العربية المتحدة
ص.ب ٧٦٩٥٦٤ أبوظبي
هاتف: 777 73 30 2 971+
فاكس: 054 12 44 2 971+
البريد الإلكتروني: info@muslim-elders.com
الموقع الإلكتروني: www@muslim-elders.com

فِهرست الهيئة المصريَّة العامَّة
لدار الكُتُب والوثائق القوميَّة:
أبوموسى، محمد محمد
من مداخل التجديد
ط -3 القاهرة: دار القدس العربي،
1440هـ/ 2019م.
ص ؛ 15 × 22 سم.
عدد الصفحات: 128
1 - علوم السياسية   2 - علم الإجتماع
3 - حوار الأديان والحضارات   4 - العنوان

رقم الإيـــداع: 2017/28820
الترقيم الدولي: 9-23-6601-977-978

الطبعة الثالثة

1440هـ/ 2019م.

صورة الغلاف الخارجي: منظرٌ للجامع الأزهر الشريف
بريشة المستشرق الفرنسي بريس دافين
Prisse d'Avennes, (1807 – 1879).

مُتعَهِّد الطبع:
دار القدس العربي ، القاهرة
البريد الإلكتروني: dar.quds@gmail.com

تصميم الغلاف: Media Pictures Adv.
وائل حسن - هاتف: 1113354001 20+
البريد الإلكتروني: wael.hasan86@gmail.com

الصَّفُّ الطِّباعِيُّ والتنسيق: أ. ناصر محمد يحيى
المراجَعة: الباحثون بـ:



(يُباعُ هذا الكِتابُ بسِعر التّـكلُفة وعائدُه مُخصَّصٌ لطباعةِ كُتُبِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ)

(الآراءُ الواردةُ في الكِتاب لا تُعبِّر بالضرورة عن رأي مجلس حُكماء المسلمين)

جميعُ حقوقِ المِلكيَّةِ الأدَبيَّة والفَنيَّةِ محفوظةٌ للمؤلِّفِ؛ ويُحْظَرُ إعادةُ إصدارِ هذا الكِتابِ، ويُمنَع نَسْخُه أو استعمال أيّ جزءٍ منه، بأيِّ وسيلةٍ تصويريَّةٍ أو إلكترونيَّةٍ أو ميكانيكيَّةٍ، بما فيه التَّسجيل الفوتوغرافي والتَّسجيلُ على أشرطةٍ أو أقراصٍ مُدْمَجَةٍ، أو أيِّ وسيلةِ نشرٍ أُخرَى، بما فيها حِفظ المعلومات واسترجاعها، إلَّا بمُوافَقَةِ المؤلِّف خَطيًّا.

مِنَ الحقَائِقِ المُقَرَّرةِ أَنَّ نهضَاتِ الأُمَمِ لا تكُونُ إِلاَّ بِعقُولِ أَبْنَائِهَا واجْتِهَادَاتِهم الخَلاَّقةِ ، وَأَنَّ تجْدِيدَ العُلُومِ وَالمعَارِفِ ليْسَ لهُ إِلاَّ طَرِيقٌ وَاحِدٌ ؛ هُوَ أَنْ نُعْمِلَ عُقُولَنا في هَذِهِ العُلُومِ ، وَالمعَارِفِ ، وَأَنْ نَسْتَخرِجَ مِنْهَا مَضْمُونَاتِهَا ، المُضْمَراتِ في كَلِمَاتِهَا ، أَوِ التِي هِيَ مُندَسَّةٌ مُبْهَمَةٌ في نُفُوسِ كَاتِبِيهَا ، غَمْغَمتْ بِهَا آثَارُهُمْ غَمْغَمَةً تَائِهَةً لا يَلْتَقِطُهَا إِلاَّ البَاحِثُ الدَّرِبُ.

د. محمد محمد أبو موسى

(القوس العذراء وقراءة التراث : ٥)

الفِهرسُ الإجماليُّ للكتابِ

طَلِيعَةُ الكِتَابِ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦]، **اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم وبارِك على سيِّدِنا محمَّدٍ وعلى آلِه، كما صلَّيتَ وسلَّمتَ وبارَكتَ على أَبوَيهِ إبراهيمَ وإسماعيلَ في العالَمِينَ؛ إنَّكَ حميدٌ مَجيدٌ.**

وبعدُ، فإنَّ حاجةَ الأمَّةِ اليومَ إلى التَّجديدِ أَشَدُّ مِن حاجتِها إليه في أيِّ وقتٍ مَضى؛ وذلك لقوَّةِ وَسَعَةِ وُجودِ أحوالٍ وقِيَمٍ وسُلوكيَّاتٍ غريبةٍ لَيسَت مِن دِينِ اللَّهِ، وهي تَتغَلغَلُ في حياةِ الأمَّةِ يومًا بعدَ يومٍ، ولاجتياحِ تيَّاراتٍ فكريَّةٍ وثقافيَّةٍ، وتَغَلغُلِها في حياةِ الأمَّةِ يومًا بعدَ يومٍ، ثمَّ لغَفلَتِنا الَّتي طالَت عن تَمكينِ أُصولِ العقيدةِ والقِيَمِ الإسلاميَّةِ في مَناهجِ التَّعليمِ؛ مع أنَّ هذا لا يُزاحِمُ مناهجَ، ولا يأخُذُ وقتَ الطَّالبِ، ويكونُ حِفظًا وصيانةً وحصانةً لأجيالِنا مِن تَخطُّفِ الشَّياطِينِ الَّذين يَخطَفُون أبناءَنا،

ويَضَعُونَ السِّلاحَ في أَيديهِم، ويَستغِلُّون فراغَ عُقولِهم مِن أُصولِ دِينِهم، ويُقْنِعُونَهم بأنَّهم إذا قَتَلُونا وخرَّبوا بلادَنا دَخَلُوا الجنَّةَ، وكانت هذه المصيبةُ وَحدَها كافيةً لمزيدِ العِنايةِ بمناهجِ التَّعليمِ في إعدادِ وتربيةِ أجيالِنا.

قلتُ: إنَّ حاجةَ الأمَّةِ إلى التَّجديدِ في زمانِنا هذا أشدُّ مِن حاجتِها إليه في الأزمنةِ الَّتي مَضَت؛ وذلك لِظُهورِ أشياءَ أَشَرتُ إلى بعضِها.

والتَّجديدُ كما عرَّفَه كِرامُ العلماءِ وكما تَدُلُّ عليه كلمةُ «التَّجديدِ» بمعناها اللُّغويِّ هو: إحياءُ ما اندَرَسَ مِن دِينِ اللَّهِ، وإزالةُ الشُّبُهاتِ والغِشاواتِ والجَهالاتِ عن مفاهيمِ هذا الدِّينِ؛ لأنَّه هو في ذاتِه وفي جُملتِه وتفاصيلِه جديدٌ لا يَتَقادَمُ، وهو فِينا اليومَ كَيومَ نَزَلَ؛ لأنَّ اللَّهَ سبحانه أَنزَلَهُ للنَّاسِ كافَّةً، في الأزمنةِ كلِّها، والأَمكنةِ كلِّها، والأطوارِ الحضاريَّةِ والثَّقافيَّةِ كلِّها، وهذا مِن إعجازِه، ومِن سِرِّ اللَّهِ فيهِ.

وليسَ التَّجديدُ أن نُضِيفَ إلى دِينِ اللَّهِ شيئًا ليسَ منه، وقدِ اتَّفَقَتِ الأمَّةُ على أنَّ التَّجديدَ هو العودةُ إلى كلامِ اللَّهِ في

كتابِه، والعودةُ إلى سُنَّةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، ونَبْذُ البِدَعِ والضَّلالاتِ الَّتي يُمكِنُ أن تَلْتبِسَ عندَ بعضِ النَّاسِ بالدِّينِ، وهو الدِّينُ الخاتمُ الباقي في الأرضِ إلى أن يُنفَخَ في الصُّورِ، ويَبطُلُ التَّكليفُ.

وهو مُمتَدٌّ على رُقعةِ الأرضِ كلِّها، ليسَ فيها مكانٌ إلَّا وفيه مُسلِمٌ، وهذا معنى قولِه عليه السَّلامُ: «**لَيَدخُلَنَّ هذا الدِّينُ ما دَخَلَ عليهِ اللَّيلُ**»[1]، واللَّيلُ لم يَدَع مَكانًا في الأرضِ إلَّا دَخَلَهُ، وكذلك الدِّينُ.

وما كان هذا شأنَه كان مَظِنَّةَ أن يَعْلَقَ به ما ليسَ منه، وكان التَّجديدُ لازمًا لعودةِ أهلِ الدِّينِ إلى صحيحِ الدِّينِ، مع أنَّ طائفةً مِنَ الأمَّةِ هم علماؤُها، كانوا -ولا يَزالُون- قائمِينَ على الحقِّ؛ يَنفُونَ عن دِينِ اللَّهِ تُراثَ الغَالِينَ، وكلامَ المُبطِلِينَ.

---

(١) أخرَجه أحمدُ في «مسنَدِه» (١٦٩٥٧) من حديثِ تميمٍ الدَّاريِّ رضي الله عنه بلفظِ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ». أمَّا اللَّفظُ المذكورُ، فقد أورَدَه الباقلَّانيُّ في «إعجاز القرآن»: ٧٦، وغيرُه.

وتاريخُ الأديانِ يُؤكِّدُ أنَّ أَخطَرَ ما تُواجِهُهُ الأديانُ هو أن يَدْخُلَ فيها ما ليسَ منها، والإسلامُ محفوظٌ مِن هذا بشهادةِ الواقعِ؛ لأنَّ اللَّهَ سُبحانه ضَمِنَ حِفظَ كتابِهِ الجامعِ لهذا الدِّينِ، وحُفِظَتِ السُّنَّةُ، وقد هيَّأَ اللَّهُ لها مِن عُلمائِها الصَّادِقِينَ المُخلِصِينَ مَنْ يَقُومون على حِفظِها، وما يُدخِلُه القياسُ في دِينِ اللَّهِ فهو مِن دِينِ اللَّهِ، وما يُدْخِلُهُ الاستنباطُ في دِينِ اللَّهِ فهو مِن دِينِ اللَّهِ.

ومِن إعجازِ هذا الدِّينِ أنَّهُ يَمُدُّ الأمَّةَ بما يُيَسِّرُ حياتَها ولا يُعَسِّرُها، وبما تَتقدَّمُ به حياتُها ولا تَتأخَّرُ، وأَظهَرُ وجوهِ إعجازِ القرآنِ أنَّهُ يُخرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ؛ قال تعالى في الآيةِ الأُولى مِن سورةِ إبراهيمَ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

وراجِعِ الظُّلُماتِ الَّتي يَعيشُ فيها النَّاسُ، وتعيشُ فيها الجماعاتُ والشُّعوبُ؛ ستَجِدُ أنَّ الجهلَ ظُلُماتٌ، والفَقرَ ظُلُماتٌ، والقَمعَ ظُلُماتٌ، والقَهرَ ظُلُماتٌ، والاستبدادَ ظُلُماتٌ، والظُّلمَ ظُلُماتٌ، والمرضَ ظُلُماتٌ، والهزائمَ

ظُلُماتٌ، والتَّخلُّفَ ظُلُماتٌ، وكلَّ عائلةِ الأوصابِ والرَّذائلِ والعُيوبِ الَّتي تَعيشُ فيها الشُّعوبُ الَّتي يُسمِّيها النَّاسُ الدُّوَلَ المُتخلِّفَةَ -كلَّها ظُلُماتٌ.

والنُّورُ عكسُ ذلك؛ فالعِلمُ نورٌ، والعَدلُ نورٌ، والتَّعاوُنُ نورٌ، والحبُّ نورٌ، والحرِّيَّةُ نورٌ، والشُّورى نورٌ، والقوَّةُ نورٌ، والاستغناءُ نورٌ، والتَّقدُّمُ نورٌ، والوفاءُ نورٌ، والبِرُّ نورٌ، والأمنُ نورٌ.

ومِن إعجازِ القرآنِ البلاغيِّ أنَّهُ يُعبِّرُ بهذا التَّعبيرِ، وبِذِكرِ كَلِمَتَيِ الظُّلُماتِ والنُّورِ؛ لِيَكونَ المَعنى شاملًا للَّذي قلتُ ولغيرِ الَّذي قلتُ، وهذا كلامُ الَّذي أَنزَلَ القرآنَ، والَّذي خَلَقَ الخَلقَ، وهو أَعلَمُ بهم وبما هم عليه، وبما سيَكُونون عليه، وجَعَلَ هذا القرآنَ وسيلةً ليس فَوقَها وسيلةٌ لإخراجِ أيِّ شَعبٍ في أيِّ أرضٍ وفي أيِّ زمانٍ وفي أيِّ طَورٍ مِن أطوارِ العِلمِ والثَّقافةِ والحضارةِ؛ جَعَلَ سُبحانه هذا القرآنَ قادرًا على إخراجِ الكلِّ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وهذا أَظهَرُ وُجوهِ إعجازِه؛ لأنَّه ليس هناك كتابٌ في الأرضِ كَتَبَهُ

حُكماءُ أو فلاسفةٌ أو ما شِئتَ وهو قادرٌ على أن يُخرِجَ النَّاسَ -كلَّ النَّاسِ- مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وإنَّما قُصارى ما يُصيبُه الحُكَماءُ أن يُخرِجُوا جِيلًا أو جماعةً مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ.

وما دامَ الأمرُ كذلك فلَيسَ هناك تجديدٌ في الخطابِ الدِّينيِّ أَفضَلُ مِن حُسنِ فَهمِ دِينِ اللَّهِ، ودينُ اللَّهِ مُتجدِّدٌ أبدًا لا يَخلُقُ على مرِّ الدُّهورِ، وهذا التَّجديدُ فيه هو قوَّتُه، وهو صلاحيَتُه للزَّمانِ كلِّه والمكانِ كلِّه، والمطلوبُ حُسنُ الفَهمِ، وأُكرِّرُ: المطلوبُ الفَهمُ الفَهمُ، وأن تُجَدَّدَ به قلوبُنا وبصائرُنا.

وما دام الدِّينُ جديدًا في نفسِه أبدًا؛ فالمطلوبُ أن نُجدِّدَ فَهمَنا نحن، وأن نُدقِّقَ بعُقولٍ حيَّةٍ في أَمرِه كلِّهِ، ونَهيِهِ كلِّهِ.

ولا شكَّ أنَّ كلَّ ما تَحتاجُهُ الأمَّةُ في حياتِها هو مِنَ الدِّينِ، وأنَّ القولَ بأنَّ هناك علومَ دِينٍ وعلومَ دُنيا يَنبغي أن يُفهَمَ على وَجهِه؛ فإذا كانَ عِلمُ الطِّبِّ ضَرُورةً لحياةِ الأمَّةِ؛

فهو مِن علومِ الدِّينِ، وكان الشَّافعيُّ له حَلْقةٌ يُدرِّسُ فيها فِقْهًا، وحَلْقةٌ يُدرِّسُ فيها طِبًّا، وهكذا قُل في بقيَّةِ العلومِ؛ كالأحياءِ والرِّياضيَّاتِ والكيمياءِ والفيزياءِ.

ولا فرقَ بينَ عالِمٍ انقَطَعَ لدراسةِ الفِقهِ وبيانِ الحلالِ والحرامِ، وعالِمٍ انقَطَعَ في مَعمَلِه يَبحَثُ عن شيءٍ تقومُ عليه صناعةٌ جديدةٌ تَزيدُ في قوَّةِ الأمَّةِ، وتَدفَعُ بها عن أَرضِها وأَعراضِها، والمُهِمُّ هو تَوفُّرُ النِّيَّاتِ الصَّالحةِ؛ فإذا استَحضَرَ هذا العالِمُ السَّاكنُ في مَعمَلِه أنَّه يُقدِّمُ لأُمَّتِهِ ما يَجلِبُ لها نفعًا أو يَدفَعُ عنها أَذًى؛ فهو في عبادتِه وفي ذِكرِه.

وكان علماؤنا يَقُولون: النِّيَّاتُ الصَّالحاتُ تُحوِّلُ المُباحاتِ إلى طاعاتٍ، فكيفَ بعُلومٍ الأمَّةُ في أشدِّ الحاجةِ إليها؟!

ولا شكَّ أنَّ الأمَّةَ لا تعيشُ بالفقهِ وَحدَهُ، وكلُّ عِلمٍ تحتاجُه حياتُها ويَجلِبُ لها نَفعًا ويَدفَعُ عنها ضرًّا هو مِن الصَّالحاتِ، وقد أَخبَرَنا عليه السلامُ أنَّه رأى رَجُلًا يَتقلَّبُ

في الجنَّةِ بسببِ غُصنِ شَوكٍ أَزالَهُ عن الطَّريقِ؛ خَشيةَ أن يُؤذِيَ المسلمين[١]، وإزالةُ غُصنِ الشَّوكِ ليسَ فقهًا ولا تفسيرًا ولا حديثًا، ولا خِطابًا دِينيًّا، وإنَّما هو عملٌ لصالحِ الأمَّةِ.

وإذا كانَ الأمرُ كما قال سيِّدُنا عليه السلامُ فكيف بالعلومِ الَّتي لا تُزيلُ غُصنَ شَوكٍ، وإنَّما تُمهِّدُ الطَّريقَ للتَّقدُّمِ والصِّناعةِ والقوَّةِ والثَّروةِ، وتفريجِ الكُرَبِ عن مَرضاها، وعن فُقَرائها . . . إلى آخِرِه.

وهذا ممَّا يجبُ أن يكونَ معلومًا عندَ عامَّةِ المسلمين وخاصَّتِهم؛ ولهذا كان مِنَ الحسَنِ والأَحسنِ معًا أن تَصطَحِبَ دَعوَتُنا إلى تجديدِ الخطابِ الدِّينيِّ دَعوتَنا إلى تجديدِ حياتِنا العِلميَّةِ، وكما نحتاجُ إلى كتائبَ مِنَ الفقهاءِ والمفسِّرِينَ والمُحدِّثِينَ مُنقطِعةٍ إلى هذه العلومِ حتَّى تُجدِّدَها؛ كذلك نحنُ في حاجةٍ إلى كتائبَ في علومِ

---

(١) أخرَجه البخاريُّ (٦٥٢) ومسلمٌ (١٩١٤) من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه.

الرِّياضيَّاتِ والكيمياءِ والطِّبِّ والفيزياءِ، وعلومِ الصَّنائعِ والهندسةِ والاقتصادِ، وبقيَّةِ حَيَواتِنا العِلميَّةِ، تَنقَطِعُ هي الأُخرى لتجديدِ كلِّ هذه العلومِ؛ لأنَّها ضرورةٌ لحياةِ الأمَّةِ كضرورةِ الفقهِ والتَّفسيرِ والحديثِ، وليسَ وجودُ هذه الكتائبِ المُنقطِعةِ لعلومِها تَرَفًا، وإنَّما هو ضرورةٌ.

وهذه الكتائبُ في كلِّ أمَّةٍ هي الَّتي تَفتَحُ أبوابَ المُستَقبَلِ الأفضلِ، وحينَ لا تُوجَدُ في شَعبٍ فليسَ لهذا إلَّا مَعنًى واحدٌ؛ وهو أنَّ أبوابَ المُستَقبَلِ مُوصَدةٌ في وَجهِه.

ثمَّ إنَّ الخِبرةَ بالحياةِ العِلميَّةِ تقولُ: إنَّها بكُلِّ فُروعِها مُمْسِكٌ بعضُها ببعضٍ، وإنَّها وَحدةٌ واحدةٌ وجَسَدٌ واحدٌ، ويستحيلُ أن تَتوهَّمَ تيَّارًا عِلميًّا مُتحفِّزًا ونَشِطًا في جُزءٍ مِن هذا الجسمِ والباقي في حالةِ رُكودٍ، والحياةُ السِّياسيَّةُ جُزءٌ مِن الحياةِ العِلميَّةِ والعقليَّةِ.

والتَّاريخُ يقولُ لنا: كان أبو جعفرٍ المنصورُ والإمامُ

مالكٌ وعَمرُو بنُ عُبَيدٍ في زَمَنٍ واحدٍ، وكان أبو الطَّيِّبِ وسيفُ الدَّولةِ وأبو عليٍّ الفارسيُّ وابنُ جنِّي في زَمَنٍ واحدٍ، وكأنَّ الزَّمانَ الَّذي يَلِدُ العمالقةَ لا يَلِدُ أقزامًا، والزَّمانَ الَّذي يَلِدُ الأقزامَ لا يَلِدُ عمالقةً؛ فلا يُتوَهَّمُ مُطلَقًا أن يكونَ هناك تجديدٌ رائعٌ ونافعٌ ومُفيدٌ في جانبٍ كالخطابِ الدِّينيِّ، معَ تَرهُّلٍ وخَلَلٍ واختلالٍ في بقيَّةِ جوانبِ الحياةِ العلميَّةِ.

ثم إنَّه لا يُتوَهَّمُ مُطلَقًا أن تكونَ هناك كتائبُ مِنَ الباحثِينَ المُنقطِعينَ الصَّادقِينَ في كلِّ حُقولِ المعرفةِ الَّتي تَحتاجُها البلادُ، سواءٌ في الخطابِ الدِّينيِّ أوِ الخطاباتِ العِلميَّةِ المُختلِفةِ، لا يُتَوهَّمُ أن يُوجَدَ هذا إلا إذا كان خَلْفَه ووراءَ ظَهرِه يُسنِدُه ويَمُدُّه بالدَّمِ الجديدِ تعليمٌ مِن أوَّلِ مَراحِلِه إلى آخرِها قائمٌ على غايةِ الجِدِّ، وغايةِ الوَعيِ، وغايةِ المُراجعةِ، وأن تكونَ المدارسُ مَناراتٍ مُتوهِّجةً، تَتوهَّجُ فيها مواهبُ الأجيالِ المُتعاقِبةِ، وأن تكونَ مدرسةُ اليومِ أفضلَ مِن مدرسةِ الأمسِ، وأن تكونَ مدرسةُ الغدِ أفضلَ

مِن مدرسةِ اليومِ، وأن تتفوَّقَ كلُّ مدرسةٍ على نفسِها في كلِّ عامٍ، وأن تَتفوَّقَ كلُّ جامعاتِنا على نَفسِها في كلِّ عامٍ، ولن تتفوَّقَ المدرسةُ على نَفسِها إلَّا إذا تَفوَّقَ مُعلِّمُوها على أَنفُسِهم في كلِّ عامٍ، ولن تَتفوَّقَ الجامعةُ على نَفسِها إلَّا إذا تَفوَّقَ أعضاءُ هيئةِ التَّدريسِ على أَنفُسِهم في كلِّ عامٍ.

وهذا التَّفوُّقُ أَمرُه ميسورٌ جِدًّا، وليس في حاجةٍ إلى ثروةٍ ولا إلى دَوْراتٍ تدريبيَّةٍ؛ لأَنَّنا جرَّبنا كلَّ ذلك وَبَاءَ بالفَشَلِ، وإنَّما له طريقٌ واحدٌ وسَهلٌ جدًّا؛ وهو ألَّا يَسقُطَ الكتابُ مِن يَدِ المُعلِّمِ مِن أوَّلِ مراحلِ التَّعليمِ، وأن تكونَ القراءةُ والمُطالَعةُ من لوازمِ الحياةِ كالطَّعامِ والشَّرابِ، وكما أنَّ طعامَ الأمسِ لا يُغنِيكَ عن طعامِ اليومِ، كذلك قراءةُ الأمسِ لا تُغنِيكَ عن قراءةِ اليومِ.

والشَّعبُ القارئُ هو الشَّعبُ المُتقدِّمُ، وهو الشَّعبُ الَّذي يُعطي، وهو الشَّعبُ الجديرُ بالاحترامِ، وأوَّلُ كلمةٍ أَنزَلَها ربُّنا في الكتابِ الَّذي يُخرِجُ النَّاسَ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ هي كلمةُ: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وهذه إشارةٌ واضحةٌ إلى أنَّ

الشُّعوبَ لا يُخرِجُها مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ إلَّا القراءةُ والعِلمُ والوَعيُ.

ثمَّ إنَّ كلَّ هذا الَّذي أَقُولُه والَّذي يجبُ أن يكونَ أكثرُ منه ليسَ تَرَفَ حياةٍ، وإنَّما هو ضرورةُ حياةٍ، وكلُّ إنسانٍ في قلبِه حُبٌّ لِوَطَنِه لا بدَّ أن يَضَعَ بين عَينَيهِ أكثرَ مِن تسعين مليونًا لا بدَّ لهم مِن حياةٍ كريمةٍ آمنةٍ، والمعنى الحقيقيُّ للمُواطَنةِ أن يكونَ بينَ عَينَيكَ هذا العددُ، وحقُّه في الحياةِ الكريمةِ، والتَّعليمِ الأرقى، والرِّعايةِ الأَرقى، والتَّقدُّمِ الدَّائمِ، وأن تَجِدَ غَضاضةً حينَ تُوصَفُ بَلَدُكَ بالتَّخلُّفِ، وهي مِن أكرمِ البلادِ مُنذُ فَجرِ التَّاريخِ.

وحبُّ الوطنِ لا مَعنى له إلَّا حبُّ الإنسانِ الَّذي يعيشُ على تُرابِ هذا الوطنِ، وقد علَّمَنا شُيوخُنا أنَّه لا مَفَرَّ لنا مِن أن نُخْرِجَ مَنْ هُمْ أَفضَلُ مِنَّا؛ لأَنَّنا إذا خرَّجنا مَنْ هُمْ في مُستوانا نكونُ قد حَكَمنا على مُستَقبَلِ بلادِنا بالتَّوقُّفِ، وإذا خرَّجنا مَن هُم دُونَنا نكونُ قد حَكَمنا على مُستَقبَلِ بلادِنا بالتَّخلُّفِ.

لا مَفَرَّ مِن أن يكونَ كلُّ جِيلٍ مِن أَجيالِنا أَفضَلَ مِن الجِيلِ الَّذي سَبَقَهُ، هذا أوِ الطُّوفانُ، وآخِرُ دَعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ.

د. مُحَمَّد مُحَمَّد أَبُو مُوسَى

القاهرة في: ١٦ ربيع الآخر ١٤٣٨هـ

الموافق: ١٤ يناير ٢٠١٧م

❋ ❋ ❋

مِن مَداخلِ التّجديدِ

(١)

الحمدُ للَّهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ اللَّهِ الَّذي اصطُفِيَ.

وبعدُ؛ فإنَّ اللَّهَ سبحانه أتمَّ النِّعمةَ على خَلقِه بنزولِ كتابِه، وببِعثةِ نبيِّه صَلَواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه، وجَعَلَ كلامَه سبحانه ووَحيَهُ لنبيِّه صَلَواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه شفاءً للنَّاسِ، وبِرًّا بالنَّاسِ، ورحمةً بالنَّاسِ، مِن يومِ أن أَنزَلَ الكتابَ مُصدِّقًا لِما بين يدَيهِ مِن الكتابِ ومُهَيمِنًا عليه، إلى يومِ أن يُنفَخَ في الصُّورِ ويَبطُلُ التَّكليفُ؛ فهو الَّذي يُخرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ في الأزمنةِ كلِّها، والأمكنةِ كلِّها.

والآنَ ونحنُ نقرأُ كلامَ اللَّهِ بوعيٍ ويَقَظةٍ، وكلامَ رسولِ اللَّهِ ﷺ بوعيٍ ويقَظةٍ؛ نَشعُرُ كأنَّ القرآنَ نَزَلَ فينا

اليومَ، وكأنَّ رسولَ اللَّهِ بيننا يَرى ما نَرى، ويَطُبُّ بكلامِه وكلامِ ربِّه لكلِّ داءٍ نَعيشُه، وليس هذا تكلُّفًا؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يحبُّ المتكلِّفين، وهذا معنى أنَّه ﷺ تَرَكَ فينا ما إن تمسَّكنا به لن نَضِلَّ بعدَهُ أبدًا.

والظُّلُماتُ في كلِّ عصرٍ هي الجهلُ، وهي التَّخلُّفُ، وهي الظُّلمُ، وهي القَمعُ، وهي القَهرُ، وهي الاستبدادُ، والنُّورُ في كلِّ عصرٍ هو العلمُ، وهو الحقُّ، وهو العَدلُ، وهو البِرُّ، وهو الرَّحمةُ، وهو الأمنُ، وهو الثِّقةُ، وهو القوَّةُ، وهو الغَلَبةُ، وهو النَّصرُ.

وكلامُ اللَّهِ وكلامُ رسولِه ﷺ يُخرِجُ كلَّ جيلٍ مِنَ الظُّلُماتِ بهذا المعنى وبغيرِه إلى النُّورِ بهذه المَعاني وبغيرِها.

وقد مرَّتِ القُرونُ ولم تُسقِطِ الأمَّةُ مِن دِينِ اللَّهِ كلمةً، ولم تُضِف إليه كلمةً، وهذا وَحدَهُ وَجهٌ مِن وجوهِ الإعجازِ، ومِن الإعجازِ أيضًا أنَّ تَقلُّباتِ الأزمانِ وتَغيُّراتِ الأحوالِ لم تُلجِئِ الأمَّةَ إلى تغييرِ حُكمٍ مِن أحكامِ اللَّهِ؛ لأنَّ الَّذي

أَنزَلَ هذا الدِّينَ يَعلَمُ ما كانَ، وما يكونُ، وما سوف يكونُ، وما لم يكن لو كانَ كيفَ كانَ يكونُ، وهذا هو اللَّهُ وَحدَهُ الَّذي لم تَغِب عنه غائبةٌ، ويَعلَمُ ما في البَرِّ والبحرِ، وما تَسقُطُ مِن ورقةٍ إلَّا يَعلَمُها سبحانه وتَقدَّسَ.

ومِن أجلِ استمرارِ أمرِ اللَّهِ ونَهيِه مع الزَّمانِ كلِّه والمكانِ كلِّه والأجيالِ كلِّها كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يُعلِّمُ أصحابَه الدِّينَ، ويُعلِّمُهم أيضًا كيف يَقِيسُون ما لم يَنزِل فيه حُكمٌ على ما نَزَلَ فيه حُكمٌ، ويَقِيسُون ما لم يَعلَمُوا على ما عَلِمُوا؛ لِتَتهيَّأَ الأمَّةُ لقياسِ ما لم يَنزِل فيه حُكمٌ على ما نَزَلَ فيه حُكمٌ، وقياسِ ما لم تَعلَم على ما عَلِمَت؛ لمواجهةِ الزَّمانِ كلِّه والأحداثِ كلِّها، والأقضيةِ كلِّها؛ حتَّى لا يَجِدُوا حَرَجًا في أمرٍ يُواجِهُونَه.

لمَّا سَأَلَتْه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الصَّحابيَّةُ الكريمةُ وقالت له: إنَّ أُمِّي نَذَرَت أن تَحُجَّ فماتت قبل أن تَحُجَّ، أَفَأَحُجُّ عنها؟ كان يُمكِنُ أن يكونَ الجوابُ: «حُجِّي» أو: «لا تَحُجِّي»، ولكنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أرادَ أن يُعلِّمَها

كيف تَستخرِجُ حُكمَ ما لم تَعلَم بقياسِه على ما عَلِمَت، فقال لها عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**أَرَأَيتِ لو كانَ على أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنتِ قاضيةً؟**» قالت: نعم؛ فقال لها: «**فاللَّهُ أَولى بالقضاءِ**»(١)، وهذا هو صُلبُ الجديدِ والتَّجديدِ.

ومِثلَه قالَ لمُعاذِ بنِ جَبَلٍ لمَّا بَعَثَهُ إلى اليمنِ، وسألَه: «**كيف تَقضي بينَ النَّاسِ؟**»، فقالَ مُعاذٌ: أَقضي بما في كتابِ اللَّهِ، فقال له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**فإن لم تَجِد؟**» قال: بسُنَّةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقالَ: «**فإن لم تَجِد؟**» فقال مُعاذٌ: أَجتهِدُ ولا آلُو، فَسُرَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ بذلك(٢)، وهذا

---

(١) أخرَجه البخاريُّ (١٨٥٢) من حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، بمعناهُ.

وقد أخرَجه مسلمٌ أيضًا (١١٤٨)، إلَّا أنَّ فيه: «إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ...»، فالسُّؤالُ في روايتِه كان عن الصِّيامِ، لا عن الحجِّ.

(٢) أخرَجه أبو داودَ (٣٥٩٢) والتِّرمذيُّ (١٣٢٧) عن رجالٍ من أصحابِ معاذٍ رضي الله عنه، مرسَلًا. وقال التِّرمذيُّ: «هذا حديثٌ لا نعرِفُه إلَّا من هذا الوجهِ، وليس إسنادُه عندي بمتَّصلٍ». انتهى.

وقد رُوي الحديثُ من وجهٍ متَّصلٍ، إلَّا أنَّ الوجهَ المرسَلَ هو الرَّاجحُ، كما ذَكَر غيرُ واحدٍ من الحفَّاظِ، منهم الدَّارقطنيُّ =

أيضًا مِن صُلب الجديدِ والتَّجديدِ، وهذا طريقُه؛ بدأَ والدِّينُ يَنزِلُ، وعلَّمَه ﷺ لأصحابِه كما علَّمَهمُ الصلاةَ.

يَعني عَلَّمهم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ العِلمَ، وعلَّمهم كيف يستخرجون عِلمًا صحيحًا مِنَ العِلمِ الَّذي علَّمَهم، وهكذا بدأَت حركةُ الفِكرِ في الأمَّةِ مُنطلِقةً مِن توجيهاتِ نبيِّها صَلَواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه، الَّذي لا يَنطِقُ عن الهَوَى، إن هو إلا وحيٌ يُوحى، وهكذا بدأت مسيرةُ الاجتهادِ والاستنباطِ والقياسِ -الَّذي هو التَّجديدُ- مع مسيرةِ البلاغِ.

وهذا ظاهرٌ ظهورًا بيِّنًا في أنَّ عِلمَ الوحيِ يُنتِجُ عِلمًا، ولن يَتوقَّفَ عن إنتاجِ هذا العِلمِ، وإنَّما يَمُدُّ بعِلمِه الَّذي يُنتِجُه حياةَ الأمَّةِ في أَزمنتِها كلِّها، وفي أَرضِها كلِّها، كلَّما تجدَّدت قضاياها وحادثاتُها، بشرطٍ ذَكَرَهُ مُعاذُ بنُ جَبَلٍ،

= في «العلل»: ٦/ ٨٩. ومع هذا، فإنَّ الفقهاءَ يَذكُرُونَ هذا الحديثَ في كُتُبِهم، ويَعتَمِدُونَ عليه؛ لصِحَّةِ معناهُ، كما ذَكَر ابنُ الجوزيِّ في «العلل المتناهية»: ٢/ ٢٧٣.

ورَضِيَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ؛ وهو أن يَجتهِدَ المؤهَّلون للاجتهادِ في الأمَّةِ «ولا يألون»، كما قالَ معاذٌ رضيَ اللَّهُ عنه؛ أي: لا يُقصِّرون.

وأَجِدُ هذا المعنى صريحًا في حديثٍ رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ، أَعني أن عِلمَ الوحيِ يُنتِجُ عِلمًا؛ وهو قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَثَلُ ما بَعَثَني اللَّهُ به مِن الهُدَى والعِلمِ كمَثَلِ غيثٍ أصابَ أرضًا . . .**»(١)، ثمَّ ذَكَرَ الأرضَ الطَّيِّبَةَ الَّتي تُمسِكُ الماءَ، وتُنبِتُ الكلأَ؛ والماءُ هو المُقابِلُ لِما أَنزَلَه اللَّهُ عليه، وهذا الَّذي أَنزَلَه اللَّهُ عليه هو الَّذي أَنبَتَ الكَلَأَ والعُشبَ، يَعني: أنَّ علومَ الوحيِ في الأرضِ الطَّيِّبةِ المُقابِلةِ للعقولِ الحيَّةِ النَّقيَّةِ الطَّاهرةِ تَستخرِجُ مِن عِلمِ الوحيِ عِلمًا جديدًا، وهذا ما ذَكَرَه بعضُ شرَّاحِ الحديثِ.

وفي هذا المعنى ذَكَرَ الشَّافعيُّ رضوانُ اللَّهِ عليه: أنَّ مِن حقِّ سيِّدِنا رسولِ اللَّهِ ﷺ على أهلِ العِلمِ أن يَبلُغُوا غايةَ

---

(١) أخرَجه البخاريُّ (٧٩) ومسلمٌ (٢٢٨٢) من حديثِ أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

الجُهدِ في الاستكثارِ مِن عِلمِه نصًّا واستِنباطًا، وأُريدُ أن أُنبِّهَ إلى قولِه: «يَبلُغُوا غايةَ الجُهدِ»، يعني: أن يَبذُلوا أقصى ما عندَهم مِن طاقةٍ حيَّةٍ وحيويَّةٍ في الاستكثارِ مِن عِلمِه، ثمَّ أُنبِّهَ إلى قولِه: «واستنباطًا»، وأنَّنا نُحصِّلُ عِلمَ المُصطفى صَلَواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه بأقصى الطَّاقةِ، وأن نَبذُلَ أَقصى الطَّاقةِ في الاستنباطِ مِن عِلمِه، يَعني: أن نَستخرِجَ مِن عِلمِه بالاستنباطِ عِلمًا ممدودًا بامتدادِ الزَّمانِ والمكانِ والأحداثِ والأَقضِيَةِ؛ فنصوصُ كلامِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ محدودةٌ، والاستنباطُ منها غيرُ محدودٍ، والقياسُ عليها غيرُ محدودٍ.

وذكرَ الشَّافعيُّ مِثلَ ذلك في الكتابِ العزيزِ، وذكَرَ القراءةَ الَّتي تَعُودُ على صاحبِها بالفضيلةِ في دِينِه ودُنياهُ؛ وهي القراءةُ الَّتي تَستخرِجُ الأحكامَ، ثمَّ تَستخرِجُ أدلَّةَ الأحكامِ، وهذا معناهُ أنَّ قراءةَ القرآنِ تُضيفُ مَعرِفةً، وأنَّ قراءةَ الحديثِ تُضيفُ مَعرِفةً، ثمَّ هي مَعرِفةٌ شديدةُ الحَذَرِ؛ لأنَّها تَدخُلُ في دِينِ اللَّهِ؛ فلا بدَّ أن تكونَ مُستخرَجةً

ومُستَنبَطةً استخراجًا واستنباطًا لا يَتطرَّقُ إليه أيُّ احتمالٍ، وهذا لا يكونُ إلَّا مِنَ العلماءِ الصَّادقِينَ المُنقطِعِينَ، ومِن البلاءِ أن يكونَ ممَّن دُونَهم.

ثمَّ إنَّ هذا اللَّونَ مِنَ القراءةِ يَستثِيرُ كلَّ قُوى الفِكرِ والعقلِ، ومُؤسَّسٌ على عِلمٍ مُتَّسِعٍ بالأصولِ والمقاصدِ، ومُؤسَّسٌ أيضًا على وَرَعٍ يَعصِمُ النَّفسَ مِن كلِّ ما يُكدِّرُ وَجهَ الحقِّ والصِّدقِ والصَّوابِ.

وهذا كلُّه اجتهادٌ وتجديدٌ، والاجتهادُ والتَّجديدُ يَخرُجانِ مِن مِشكاةٍ واحدةٍ؛ هي العقلُ المُشبَعُ بالمعرفةِ الصَّادقةِ والواضحةِ لأصولِ الدِّينِ وفُروعِه، ثمَّ هو مُشبَعٌ بالقدرةِ العقليَّةِ القادرةِ على اختراقِ المجهولِ، وإزالةِ غِشاوتِه بما هو أَشبَهُ به مِن المعلومِ، وتُعجِبُني دائمًا كلماتُ «أقصى المجهود وأقصى الوُسعِ»؛ لأنَّه لا تَقَدُّمَ إلَّا بهما، ولا انتصارَ إلا بهما، ولا عيشَ كريمَ إلا بهما.

وتجدُ في هذه اللُّغةِ الشَّريفةِ كثيرًا من الملحوظاتِ العجيبةِ؛ منها هنا أنَّك لو وَضعتَ هذه الألفاظَ الثَّلاثةَ

مُتجاورةً وهي: «الجِدُّ»، و«الاجتهادُ»، و«التَّجديدُ»؛ لوجدتَها أَخَواتٍ مِن أبٍ وأمٍّ، ثمَّ هي في المعنى بعضُها مِن بعضٍ، فالجِدُّ أصلُ الاجتهادِ، والجِدُّ: هو أَقصى الطَّاقةِ، كما قال الشَّافعيُّ[1]، وهو يُفضي إلى الاجتهادِ الَّذي أَصلُه الاستنباطُ، وكلُّ ذلك جديدٌ.

وإذا قلتَ مرَّةً ثانيةً: لا اجتهادَ إلا بجِدٍّ، ولا جديدَ إلا باجتهادٍ؛ تكونُ قد أَصبتَ وكَشَفتَ تَقارُبَ المَعاني الَّتي تَقارَبَت ألفاظُها، والخُطوةُ الأُولى هي الجِدُّ، وإذا لم نَبدَأ منها فَلَن نَصِلَ إلى شيءٍ.

ومِن الملحوظاتِ العجيبةِ في هذه اللُّغةِ الشَّريفةِ أنَّ كلمةَ «الظُّلمِ» وَضَعَها أصحابُ اللُّغةِ الأوائلُ في الزَّمَنِ الأقدمِ: لِوَضعِ الشَّيءِ في غيرِ مَوضِعِه[2]، وليست عَلَمًا لرذيلةٍ مُعيَّنةٍ

---

(١) في «الرِّسالة»: ٥٠٩، بلفظ: «وعليه في ذلك بلوغُ غايةِ جَهْدِهِ، والإنصافُ من نَفْسِه، حتى يَعرفَ من أين قال ما يقول، وتَرَكَ ما يَترُكُ».

(٢) انظر: «غريب الحديث» لابن قُتَيبة: ١/ ٤٨٤، و«جمهرة اللغة» لابن دُرَيد (٢/ ٩٣٤) و«الزاهر في معاني كلمات الناس» لابن الأنباري (١/ ١١٧).

مِثلِ السَّرِقةِ والكذبِ والنِّفاقِ إلى آخِرِه، وإنَّما كلُّ هذا يُسمَّى ظُلمًا مِن جهةِ أنَّه وُضِعَ في غيرِ مَوضِعِه، فالسَّرِقةُ وُضِعَت موضعَ الأمانةِ، والكذبُ وُضِعَ موضعَ الصِّدقِ، والزُّورُ وُضِعَ موضعَ الحقِّ إلى آخِرِه.

ثمَّ هذه اللَّفظةُ مُشتقَّةٌ مِنَ الظُّلمةِ؛ لأنَّ كلَّ ذلك مِنَ الظُّلمةِ؛ فالمجتمعُ الَّذي تَشيعُ فيه هذه الرَّذائلُ يعيشُ في ظُلمةٍ، ثمَّ هي ظُلمةٌ مُتفرِّقةٌ على هذه الخَطايا؛ فالقَمعُ ظُلمةٌ، وقَهرُ النَّاسِ ظُلمةٌ، والقتلُ ظُلمةٌ، وكأنَّ الظُّلمةَ تُوشِكُ أن تُلبِسَ المجتمعَ الَّذي تَفرَّقَت فيه هذه التَّفاريقَ السَّوداءَ.

فإذا قلتَ: مجتمعُ القَمعِ يعيشُ في ليلٍ، ومجتمعُ القَهرِ يعيشُ في ليلٍ، ومجتمعُ القتلِ والسَّلبِ والنَّهبِ والكَذِبِ والتَّآمُرِ كلُّ ذلك يعيشُ في ليلٍ؛ لم تكُن مُخطِئًا.

ثمَّ يأتي القرآنُ الكريمُ ولم يُطلِق على الشِّركِ اسمًا مِن أسماءِ الخَطايا إلَّا الظُّلمَ؛ فيقولُ لقمانُ لابنِه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

وليس في القرآنِ أنَّ الشِّرك كَذِبٌ، ولا أنَّ الشِّرك زُورٌ، ولا أنَّ الشِّركَ سَرِقةٌ، وإنَّما فيه فقط: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وهذا مِنَ الفقهِ العجيبِ الَّذي لو قَرَأَهُ الظَّالِمُ لارْعَوَى إن كان له قلبٌ.

والظُّلمُ يُقابِلُه العدلُ الَّذي هو وَضعُ الشَّيءِ في مَوضِعِه، وسيِّدُنا رسولُ اللَّهِ ﷺ يُفسِّرُ الوَسَطَ بالعَدلِ، ويقولُ في الحديثِ الَّذي رواهُ الإمامُ أحمدُ[1]: «**الوَسَطُ العَدلُ**»، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالوسطيَّةُ الَّتي ذَكَرَها ربُّنا لهذه الأمَّةِ هي العدلُ، فإذا ذَهَبَ العَدلُ عن حياةِ النَّاسِ وحَلَّ مَحَلَّهُ الظُّلمُ لم تَعُدِ الأمَّةُ أمَّةً وَسَطًا، وإنَّما انحرَفَت عن نُقطةِ المِيزانِ والقِسطاسِ

---

(١) في «مسنَدِه» (١١٢٧١)، وكذا أخرَجه البخاريُّ في «صحيحِه» (٣٣٣٩) كلاهما من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه.

قال الحافظُ ابنُ حجرٍ: «قولُه: «وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ» هو مرفوعٌ من نفسِ الخبرِ، وليس بمُدرَجٍ من قولِ بعضِ الرُّواةِ، كما وَهِمَ فيه بعضُهم». «فتح الباري»: ٨/ ١٧٢.

المُستقيمِ، وصارَت إلى العِوَجِ والضَّياعِ، وما انتَشَرَ الظُّلمُ في دولةٍ إلا دَالَت.

وكان مِن الواجبِ أن نكونَ مِن أشدِّ شُعوبِ الأرضِ مُحافَظةً على العَدلِ الَّذي هو مِن أسرارِ تكريمِ ربِّنا لنا؛ لأنَّه هو الوَسَطيَّةُ الَّتي كانت مِن ثَناءِ اللَّهِ علينا، وهو الخيريَّةُ الَّتي أَخبَرَنا ربُّنا عنها في قولِه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهو سِرُّ ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وشُيوعُ العَدلِ في رُبوعِ دِيارِ أهلِ الإسلامِ مُنتِجٌ لذلك كلِّه، وشُيوعُ الظُّلمِ مُنتِجٌ لعَكسِ ذلك كلِّه.

وكان التَّدبُّرُ في اللُّغةِ -ولا يَزالُ- مُنتِجًا فِكرًا جليلًا؛ لأنَّ هذه العربيَّةَ غنيَّةٌ بوسائلِ الإبانةِ، ومِن وسائلِها أنَّك تَجِدُ أحيانًا المعنى ساكنًا في وُكْنَةٍ(١) مِن وُكُناتِها، ويَمُرُّ عليه الزَّمَنُ بعدَ الزَّمَنِ حتَّى يُصادِفَه عَقلٌ يَهديهِ اللَّهُ إليه، فيَستخرِجَهُ مِن تحتِ الألفاظِ الَّتي طالما قَرَأَها النَّاسُ وتَدبَّرُوها.

---

(١) «الوُكْنةُ»: مَواقِعُ الطَّيرِ حيثُما وقَعَتْ. راجع: «تاج العروس»: ٣٦/ ٢٦٤.

مِن ذلك أنَّ الزَّمخشريَّ وهو يَشرَحُ قولَه تعالى في سورةِ غافر: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧] يَستخرِجُ من قولِه سبحانه: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أنَّ الملائكةَ لم يَروا ربَّهم[١]، ووَجهُ هذا الاستخراجِ أنَّ الآيةَ ذَكرَت إيمانَهم باللَّهِ في سِياقِ الثَّناءِ عليهم، ولا يكونُ الإيمانُ ثناءً يُذكَرُ به المؤمنُ إلَّا إذا كان إيمانًا بالغيبِ، أمَّا الَّذي رأى وآمَنَ بما رأى فلا ثَناءَ عليه بإيمانِه، ويُعقِّبُ الرَّازيُّ على هذا الاستخراجِ بقولِه: «لو لم يكُن له في كتابِه إلَّا هذا لَكفاهُ»[٢].

لاحِظ أنَّ هذا المعنى ظلَّ ساكنًا في كلمةِ: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ حتى استخرجَهُ الزمخشريُّ في القرنِ السَّادسِ.

ومِثلُ هذا ما يَستخرِجُه أهلُ السُّنَّةِ مِن قولِه تعالى في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: ٣] مِن أنَّ اللَّهَ

---

(١) «الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل» للزمخشري: ٤/ ١٥٢ وراجع: «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب» للطيبي: ١٣/ ٤٦٤، ٤٦٥.

(٢) «مفاتيح الغيب»: ٢٧/ ٤٨٨.

سبحانه وتعالى قد يَغفِرُ لمُرتكِبِ الكبيرةِ إذا مات ولم يَتُب منها، وهذا خلافُ ما عليه المعتزلةُ الَّذين يَرَونَ أنَّ اللَّهَ لا يَغفِرُ الكبائرَ إلَّا بالتَّوبةِ[(١)].

ووَجهُ استشهادِ أهلِ السُّنَّةِ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ معطوفٌ على ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، والعطفُ يَقتضي المُغايَرةَ، وإذا كان سبحانه لا يَغفِرُ ذَنبَ مُرتكِبِ الكبيرةِ إلَّا بالتَّوبةِ لَكانَ قولُه سبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ داخِلًا في قوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، وكان يَكتفي بـ: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ عنه[(٢)].

وقد علَّمَنا ربُّنا جلَّ وتقدَّسَ أنَّ تَدبُّرَ كلامِه هو طريقُ

---

(١) قال القاضي عبد الجبار في «متشابه القرآن»: ٤١٧ عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ [التوبة: ١٠٦]: «... قسَّم من أَقْدَمَ على المعاصى مع صالح عمله قسمين؛ فبيَّن فى أحدِهما أنه من أهلِ الجنةِ لا مَحالةَ، من حيث تاب واعترف بالذنب، وبيَّن فى الآخر لمَّا لم يفعل ذلك أن أمرَهم مترقبٌ، فإما أن تقع التوبةُ منهم فيتوبَ عليهم، أو يعذبَهم إن لم يفعلوا ذلك، وهذا صريحُ قولِنا».

(٢) انظر: «مفاتيح الغيب» للرازي: ٢٧/ ٤٨٥.

الإيمانِ وطريقُ الإقناعِ، والاقتناعُ بأنَّه يَستحيلُ أن يكونَ هذا المُنزلُ كلامَ غيرِه، وقد نَقَلَ علماءُ القرآنِ ضرورةَ التَّدبُّرِ مِن القرآنِ إلى كلِّ بيانٍ؛ لأنَّ تَدبُّرَك للقرآنِ كما أنَّه يُفضي بكَ إلى الاقتناعِ بأنَّه لا يكونُ إلا منه سُبحانه، كذلك تَدبُّرُك لكلامِ النَّاسِ يُفضي بك إلى استحالةِ أن يكونَ الَّذي بين الدَّفَّتَينِ مِن كلامِ هذه النَّاسِ، وقال أبو بكرِ بنُ الطَّيِّبِ[1]: «وجهُ الوقوفِ على شرفِ الكلامِ أن تتأمَّلَ».

ثمَّ إنَّه يَصِفُ التَّأمُّلَ الَّذي يَقِفُ بنا على شَرَفِ الكلامِ بأن نَتأمَّلَ بِسُكونِ طائرٍ وخفضِ جَناحٍ[2]؛ وسكونُ الطَّائرِ هذا هو الَّذي يَجعَلُكَ تُصغِي إلى الأصواتِ الخفيَّةِ الهامسةِ في الكلامِ، وهذا عجيبٌ وتائِهٌ مِن الجيلِ، وفيه أنَّ غمغمةَ الأسرارِ الخفيَّةِ في البيانِ والَّتي يَرجِعُ إليها شَرَفُه لا تَسمَعُها الآذانُ الَّتي تعيشُ في صَخَبِ هذه الحياةِ، وإنَّما تَسمَعُها آذانُ المُنقطِعينَ في مَحارِيبِ العِلمِ، والَّذين لم تَقُم

(١) في «إعجاز القرآن» له: ١٩٧.

(٢) م.ن: ١٥٤.

حضاراتُ الأممِ في التَّاريخِ كلِّه إلَّا بهم وبانقطاعِهم.

وبعضُ الصِّيَغِ تحتاجُ إلى قليلٍ من التَّأمُّلِ، فيَقَعُ في نفسِكَ منها مَعنًى جليلٌ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور: ٦١]؛ والمُرادُ: يُسلِّمُ بعضُكم على بعضٍ، ولكنَّ اللَّفظَ جَعَلَ هذا البعضَ هو نفسي، فأنا حينَ أُسلِّمُ على النَّاسِ إنَّما أُسلِّمُ على نفسي؛ لأنَّ هؤلاء النَّاسَ هم نفسي، ولا تَجِدُ تَراحُمًا بين النَّاسِ ولا تَقارُبًا أفضلَ مِن هذا، ولا تجدُ حياةَ جماعةٍ أفضلَ مِن حياةِ جماعةٍ يَسُودُ فيها هذا المعنى.

ويُذكَرُ منه: «**لا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حتَّى يُحِبَّ لِأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفسِهِ**»(١)، وأنَّنا جَسَدٌ واحدٌ، ولا تَجِدُ أَسلَمَ لحياةِ النَّاسِ ولا أَبعَدَ للبغضاءِ مِن مِثلِ هذا.

ومِثلُه قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [الروم: ٢١]، والزَّوجُ: يُقالُ للرَّجُلِ والمرأةِ؛ فهي مخلوقةٌ مِن نَفسِه، وهو مخلوقٌ مِن نَفسِها، وليس في البِرِّ أفضلُ مِن

(١) أخرَجه البخاريُّ (١٣) ومسلمٌ (٤٥) من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا، وتَعْجَب كيف تُظلَمُ المرأةُ وفي المسلمين هذه الآيةُ، والتَّجديدُ -يا عزيزي- هو أن نُجدِّدَ معانيَ الكتابِ والسُّنَّةِ في نُفوسِنا، وليس في الكُتُبِ.

ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]؛ يَعني: أنَّك أيُّها المغرورُ المُستقوي على النَّاسِ حينَ تُطلِقُ الرَّصاصةَ وتُسكِّنُها في رأسٍ أو بطنِ أخيكَ المُسلِمِ إنَّما تُسكِّنُها في رأسِكَ أنت، وفي بطنِكَ أنت؛ لأنَّهُ نفسُك وأنت نفسُه.

قلتُ: إنَّني حينَ أتدبَّرُ الآياتِ أَشعُرُ كأنَّها نزلت فينا؛ لِتَكُفَّنا عنِ الجنونِ الَّذي نحنُ فيه؛ لأنَّ قتلَ بعضِنا لبعضٍ ليس من السياسةِ، وإنما هو الجنونُ.

وتَقرَأُ مِن كلامِ سيِّدِنا رسولِ الله ﷺ: «**مَن فرَّجَ عن مُسلِمٍ كُربةً من كُرَبِ الدُّنيا، فرَّجَ اللَّهُ عَنهُ كُربةً مِن كُرَبِ يَومِ القيامةِ**»(١).

(١) أخرَجه البخاريُّ (٢٤٤٢) ومسلمٌ (٢٥٨٠) من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ رضي الله عنهما. وأخرَجه مسلمٌ وحدَه (٢٦٩٩) من حديثِ أبي هُريرةَ رضي الله عنه، =

تأمَّل كُربةً يومَ القيامةِ، وحاجتَك إلى أن يُفرِّجَها اللَّهُ عنك، وهذا يَجعَلُنا جميعًا نُسارِعُ في تفريجِ كُرَبِ مَن حَولَنا، وراجِع أثرَ هذا في حياةِ النَّاسِ، وراجِع كيف يكونُ المجتمعُ المُتراحِمُ الَّذي يَشيعُ فيه هذا المعنى.

ومِثلُه قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَن سَلَكَ طريقًا يَطلُبُ فيه عِلمًا سهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلى الجنَّةِ**»(١)، وراجِع أيضًا الطَّريقَ إلى الجنَّةِ الَّذي يُسهِّلُهُ لنا ربُّنا جلَّ وتقدَّسَ بنَفْسِه سُبحانَهُ.

وتأمَّل لفظَ الجلالةِ الجامعَ للكمالاتِ كلِّها، ولو عَقَلنا ذلك لازدحمَت طُرُقُنا بالسَّالِكِينَ في طلبِ العِلمِ، وراجِع أيضًا أثرَ ذلك، وكلُّ هذا جديدٌ وتجديدٌ لحياةِ الجماعةِ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يُجادِلَ في ذلك.

ومِن الصِّيَغِ ما يحتاجُ منك إلى مراجعةٍ أطولَ حتَّى تَبُثَّها في حياةِ الجماعةِ، ويكونَ لها الأثرُ المحمودُ.

= بلفظِ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا...».

(١) أخرَجه مسلمٌ (٢٦٩٩) من حديثِ أبي هُريرةَ رضي الله عنه.

مِن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ويُلاحَظُ أنَّ هذا الأمرَ كالأمرِ بالصَّلاةِ والصَّومِ، والمطلوبُ أن نُراجِعَ الكلماتِ، وأوَّلُ ما يُلاحَظُ هو الجارُّ والمجرورُ في قولِه سبحانه: ﴿لَهُم﴾، فنحن نُعِدُّ لهم أَعني لِدَفعِ عُدوانِهم علينا، وليس لاعتدائِنا عليهم؛ لأنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المعتدين، ثمَّ كلمةُ: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ وهي في غايةِ الأهمِّيَّةِ؛ لأنَّها تَعني أن تَبلُغُوا أقصى قُدرتِكم وأقصى ما تستطيعونَ في إعدادِ قُوَّتِكمُ الَّتي تَردَعُ عَدُوَّكم؛ فلا يَطمَعُ في حَبَّةِ تُرابٍ من أَرضِكم، وَليَكُن هذا هو الشَّأنَ الأوَّلَ في حياتِكم، والعجيبُ أنَّ غيرَ المسلمين أخذوا بهذا التوجيهِ، وغَفَلنا نحنُ!.

وقد أشارتِ الآيةُ إلى أنَّ أدَواتِ الحربِ تتغيَّرُ؛ فركَّزت على القوَّةِ الَّتي تُرهِبُ عدوَّ اللَّهِ وعدوَّكم، وهذه لا تتغيَّرُ، فإذا كان رِباطُ الخيلِ في زمنِ النُّزولِ هو العُنصُرَ الأقوى

والأصلبَ في الجيوشِ؛ فإنَّ هذا العُنصُرَ قابلٌ لأن يتغيَّرَ، وأن يكونَ بَدَلَ رِباطِ الخيلِ مصانعُ إعدادِ آلةِ الحربِ، وشيوخُ علماءِ علومِ الصَّنائعِ في مَحاريبِهمُ الَّتي هي مَعامِلُهم قائمين قاعدين مُرابِطين؛ ليَصِلوا إلى ما يُفاجَأُ به العدوُّ في إعدادِ جيوشِكم، فليس المطلوبُ أن تكونوا على مُستواهم في صناعةِ السَّلاحِ، وإنما المطلوبُ أن تكونوا أفضلَ؛ لأنَّ القوةَ الَّتي تُرهِبُ هي قوةُ الردعِ الَّتي هي أعلى.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [محمد: ٣٥] جاءت في آخِرِ «سورةِ القتالِ»؛ يَعني: لا تَسقُطوا في الهزائمِ؛ فتَحزنوا وتَهِنُوا وأنتمُ الأعلَونَ، أنتم أُمَّةُ العَدلِ الَّتي هي أَمَّةُ الوسَطِ، وأنتم خيرُ أمَّةٍ، وأنتم أُمَّةُ «الأعلَون»، تأمَّل وابعَثِ الطُّموحَ في قلبِ الأمَّةِ.

وقد قرأَ رسولُ ﷺ رأسَ هذه الآيةِ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ثمَّ قال: «**أَلَا إنَّ القوَّةَ الرَّميُ، ألا إنَّ القوَّةَ الرَّميُ، ألا إنَّ القوَّةَ الرَّميُ**»[1].

---

(١) أخرَجه مسلمٌ (١٩١٧) من حديثِ عُقبةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه.

وهذا هو طريقُ الآيةِ: الشيءُ الَّذي لا يتغيرُ هو القوَّةُ، أمَّا أدواتُها فإنها سريعةُ التغيُّرِ؛ لأنَّ النَّاسَ لم يَشغَلهُم شيءٌ كما تَشغَلُهمُ القوةُ الَّتي يَحمُونَ بها أرضَهم وأعراضَهم، ولا يَغفُلُ عن ذلك إلا الَّذي لا يَصلُحُ للقيادةِ، وكما أنَّ الآيةَ ذَكَرَت رِباطَ الخيلِ؛ فالحديثُ ذكَرَ الرميَ، وهو قابلٌ لأن يتغيرَ، وأن تَضَعَ مكانَه العنصرَ الأفعلَ والأقوى والأنجحَ، وأن تُعِدُّوه ما استطعتم.

سيِّدُنا رسولُ اللَّهِ ﷺ يؤكِّدُ لنا الحقيقةَ الثَّابتةَ الَّتي لا تتغيرُ؛ وهي: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وأنَّ الآيةَ الكريمةَ ذَكَرَت مِثالًا للقوَّةِ الَّتي نُعِدُّها؛ وهي رِباطُ الخيلِ، والمصطفى صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه يَضَعُ الرَّميَ مكانَ رباطِ الخيلِ؛ للإشارةِ إلى أن أدواتِ القوةِ متغيرةٌ.

وقولُه عليه الصلاةُ والسلامُ: «**خيرُ النَّاسِ رَجُلٌ مُمسِكٌ بعِنانِ فَرَسِهِ، كلَّما سَمِعَ هَيعَةً طارَ إِلَيها**»(١)، هذا الحديثُ

---

(١) أخرَجه مسلمٌ (١٨٨٩) من حديثِ أبي هُريرةَ رضي الله عنه، بلفظِ: «مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً...».

مِن أكرمِ كلامِه ﷺ، مع أنه لم يَبقَ منه لا فَرَسٌ ولا عِنانٌ، وإنَّما الباقي منه ما وراءَ الفَرَسِ والعِنانِ ممَّا قصَدَ إليه خيرُ الخَلقِ صلَواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه؛ وهو الرغبةُ في الدفاعِ عن الأرضِ والعِرضِ والكرامةِ، تلك الرَّغبةُ الَّتي شَغَلتهُ عن كلِّ شيءٍ، ولم يَشغَلهُ عنها شيءٌ، أيُّ شيءٍ.

وقد دلَّت كلمةُ: «**مُمسِكٌ بعِنانِ فَرَسِه**» على ذلك، وعلى أكثرَ منه، وإنما ذَكَرَ الفَرسَ والعِنانَ كما ذَكَرَ الرَّميَ؛ مِثالًا للقوةِ، وكما ذَكَرَت آيةُ الأنفالِ رِباطَ الخيلِ مِثالًا للقوةِ الَّتي يجبُ أن نُعِدَّها، وأنَّ وُجوبَها جاء الأمرُ به كما جاء الأمرُ بالصلاةِ والصيامِ.

والعجيبُ أنَّ كلَّ ذلك ليس فيه خُطوةٌ واحدةٌ يُمكِنُ أن تُحسَبَ مِن الاعتداءِ، وإنما هو الدفاعُ؛ لأننا أُمِرنا أن نُقاتِلَ الَّذين يُقاتلوننا، ونُهِينا عنِ الاعتداءِ، وأَخبَرَنا ربُّنا أنَّهُ سبحانه لا يحبُّ المُعتدِينَ، وقد جاء بعدَ آيةِ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠] الَّتي هي مِن أوضحِ آياتِ الكتابِ في إعدادِ الأمَّةِ للدِّفاعِ عن نفسِها -جاء قولُه تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]؛ يَعني:

المطلوبُ كَسرُ عُنجُهِيَّةِ الإحساسِ بالغَلَبةِ عند أعدائِكمُ الَّذين هم أعداءُ اللَّهِ.

وكلمةُ: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] تَعني: أنكم لا يجوزُ أن تُحارِبوا ولا أن تُعادُوا إلَّا أعداءَ الحقِّ والبِرِّ والرحمةِ؛ لأنَّ اللَّهَ هو الحقُّ، وهو البَرُّ الرحيمُ، وإن تَنصُروه يَنصُرْكم، ولا معنى لأن نَنصُرَ اللَّهَ إلا أن نُنفِّذَ أَمرَهُ، وأن نُعِدَّ لهم ما استطعنا مِن قوَّةٍ نُرهِبُهُم بها حتى يَنكَفُّوا عنَّا، ويكونَ هذا الإعدادُ مِن أهمِّ دَواعي السَّلامِ.

ومِثلُ هذا قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**الخَيلُ مَعقُودٌ بِنَواصِيها الخَيرُ**»[1]، ولو قُلتَ: إنَّ كلَّ وسائلِ إعدادِ عُدَّةِ

---

(١) الحديثُ متَّفقٌ عليه من حديثِ كلٍّ من:

عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما: «صحيح البخاريِّ» (٢٨٤٩) و«صحيح مسلم» (١٨٧١)، بنحوِه.

عروةَ بنِ الجعدِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: «صحيح البخاريِّ» (٢٨٥٠) و«صحيح مسلم» (١٨٧٣).

أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: «صحيح البخاريِّ» (٣٦٤٥) و«صحيح مسلم» (١٨٧٤) -بلفظِ: «الْبَرَكَةُ فِي نَوَاصِي الْخَيْلِ»-.
=

الحربِ المنظورةِ بجُيوشِنا معقودٌ بنواصيها الخيرُ لم تَخرُج عن معنى كلامِ رسولِ اللَّهِ ﷺ؛ لأنَّ المقصودَ الأعلى هو أدواتُ الحربِ الَّتي تَحمي أرضَنا وأعراضَنا وكرامتَنا.

ولو قلتَ في معنى الحديثِ الشريفِ: إنَّ مصانعَ آلاتِ الحربِ مِن الطياراتِ والدباباتِ وإعدادِ العلماءِ والباحثين والكَفاءاتِ العسكريَّةِ؛ كلُّ ذلك معقودٌ بنواصيهِ الخيرُ لم تكُن بعيدًا عن كلامِ سيِّدِ الخَلقِ.

ولو قلتَ: إنَّ مراكزَ الأبحاثِ ومعاملَ الباحثين مِنَ العلماءِ المُنقطِعينَ للكشفِ العلميِّ المُفضي إلى صناعةِ أدواتٍ جديدةٍ تُفاجئُ أعداءَ الأمَّةِ معقودٌ بنواصِيها الخيرُ لم تكُن بعيدًا عن كلامِ سيِّدِ الخَلقِ، وليس المرادُ بالخيلِ معناها الحقيقيَّ، وإنما كلُّ ما يَتحَقَّقُ به النصرُ وحمايةُ الأرضِ والعِرضِ معقودٌ بنواصيهِ الخيرُ الَّذي هو النصرُ والعزَّةُ والغَلَبةُ.

= وقد تفرَّد به مسلمٌ عن كلٍّ من: جريرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنه (١٨٧٢) وأبي هُريرةَ رضي الله عنه (٩٨٧) -في حديثٍ طويلٍ-.

وهذا الحديثُ من الأحاديثِ الَّتي يُخاطِبُنا صلى اللَّه عليه وسلم بها؛ لِنَعيشَ أحرارًا كِرامًا على أرضِنا، ولا يُفرِّطُ في ذلك إلَّا الَّذي لا يَغارُ على أرضِه ولا على عِرضِه ولا على كرامتِه وكرامةِ وطنِه، والنَّاسُ مِن حولِنا مَن غَلَبَ وسَلَبَ، وليس للضعيفِ المغلوبِ حقٌّ.

هذا واللَّهُ أَعلَمُ.

***

مِن مَداخِلِ التَّجدِيدِ

(٢)

كَتَبَ كثيرٌ مِن أهلِ الحقِّ مِن علمائِنا في التَّجديدِ ورجالِه ومناهجِهم، وهو كلامٌ جيِّدٌ ونافعٌ، وخصوصًا حينما يَعرِضُون إلى الأزمنةِ وأحداثِها، وكيف واجهَ العلماءُ الأبرارُ هذه الأزمنةَ وهذه الأحداثَ بالاجتهادِ والحكمةِ. . . وكلُّ تجديدٍ في أيِّ بابٍ مِن أبوابِ العِلمِ لا بدَّ أن يكونَ فَهْمًا بالغَ الدِّقَّةِ وبالغَ العُمقِ لهذا البابِ، وإلا كان خَبْطًا وخَلْطًا وفسادًا.

فإذا كانَ التَّجديدُ مُتَّصِلًا بدِينِ اللَّهِ فلا بدَّ أن يكونَ فَهمًا بالغَ الدِّقَّةِ والعمقِ لكلامِ اللَّهِ وكلامِ رسولِه عليه السَّلامُ.

وأهمُّ ما يُعينُ على تجديدِ الخطابِ الدِّينيِّ الَّذي هو في حقيقتِه بلاغٌ منَّا للناسِ عنِ اللَّهِ ورسولِه -أن نَعُودَ إلى بلاغِه عليه السلامُ عن ربِّه؛ لأنه عليه السلامُ صاحبُ الخطابِ الدينيِّ الأوَّلِ.

ومِن أهمِّ ما يُؤسَّسُ عليه تجديدُ الخطابِ الدِّينيِّ:

الفَهمُ الواعي لمادَّةِ الخطابِ، ثمَّ إبلاغُها إلى قلوبِ النَّاسِ في أحسنِ صورةٍ مِن اللفظِ، والفَهمُ الواعي لمادةِ البلاغِ يُلاحَظُ فيه ما قاله الشَّافعيُّ مِن بلوغِ أقصى الجُهدِ في تحصيلِه نصًّا واستنباطًا[1]، وهذه الجملةُ مِن أنفسِ ما يَقرَأُ أهلُ العِلمِ؛ أوَّلًا لأنَّ بلوغَ أقصى الجُهدِ لا يأتي إلا بخيرٍ.

والثَّاني: قولُه نصًّا وهو الَّذي يَعني الفَهمَ المُستوعِبَ الواعي.

والثَّالثُ: الاستنباطُ الَّذي يَتجاوَزُ الظاهرَ إلى ما وراءَه، والَّذي وراءَ الظاهرِ عوالمُ شديدةُ الاتِّساعِ، أو كما قالوا: «مَنادحُ لو سارت بها العِيسُ كَلَّت»[2].

---

(١) «الرسالة» للشافعي: ١٩، بلفظ: «حقَّ على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدِهم في الاستكثار من علمه، والصبرُ على كلِّ عارض دون طَلَبِه، وإخلاصُ النِّيَّة للَّه في استدراك علمه نصًّا واستنباطًا، والرغبةُ إلى اللَّه في العون عليه؛ فإنه لا يُدرَك خيرٌ إلا بعونه».

(٢) هذا عجزُ بيتٍ لجميلِ بنِ معمرٍ العُذريِّ، وتمامُه:

وإن تكن الأُخْرَى فإنَّ وَرَاءَنَا
منادح لو سَارَتْ بها العيس كلَّت

انظر: «الأمالي» لأبي علي القالي: ٢/ ١٠٩، و«الحماسة البصرية» =

هذا في كلامِ العلماءِ الكرامِ الأكابرِ، وفي الشعرِ، ثم هو في كلامِ اللَّهِ وفي كلامِ رسولِه ﷺ لا تَحُدُّها حدودٌ، ومِن جلالِ وعظمةِ كلامِ اللَّهِ وكلامِ رسولِه ﷺ أنهما يُمِدَّانِ كلَّ مُستنبِطٍ بما يَفي بحاجتِه؛ لأنهما لم يكونا لزمنٍ مُعيَّنٍ، وإنما للأزمنةِ كلِّها، وعطاءُ الكتابِ والسُّنَّةِ لأهلِ زمانِنا كعطائهما لأهلِ كلِّ زمانٍ إلى يومِ البعثِ؛ لأنَّ الَّذي في دِينِ اللَّهِ وأَخرَجَ النَّاسَ في الزمنِ الأوَّلِ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ باقٍ يُخرِجُ النَّاسَ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ إلى يومِ القيامةِ، فهو متجدِّدٌ أبدًا، والمطلوبُ أن يتجدَّدَ في أنفسِنا.

وفي الكتابِ العزيزِ إشارةٌ إلى تجديدٍ من بابٍ آخَرَ؛ وهو أنَّ العِلمَ سيَكتشِفُ آياتِ اللَّهِ في الآفاقِ وفي الأنفُسِ، وأنَّ هذه الكُشوفَ العلميَّةَ ستتوالى، وأنَّها سيَتبيَّنُ بها أن الَّذي بين الدَّفَّتَينِ حقٌّ لا شكَّ فيه، وذلك في سورة فصلت: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

= لصدر الدين البصري: ٢/ ١٢٤.

والسينُ في قولِه: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ تَعني أننا سنَرى شيئًا لم نَرَهُ قبلُ، فإذا كان خلقُ اللَّهِ لهذه الآفاقِ وهذه الأنفُسِ دليلَ الوحدانيَّةِ؛ فإن الَّذي سنراهُ هو تفاصيلُ ودقائقُ هذا الخَلقِ، ومعنى هذا أن تقدُّمَ العِلمِ المُكتشِفِ لأسرارِ الوجودِ في الآفاقِ وفي الأنفسِ ستتَّسِعُ معه دائرةُ المؤمنين، وتتناقصُ دوائرُ المُلحِدينَ.

ثم في الآيةِ إشارةٌ إلى الربطِ الوثيقِ بين الكتابِ المقروءِ وهذا الكونِ الصَّامتِ، وأنَّ زيادةَ العلمِ بالكونِ تَعني زيادةَ الإيمانِ بالكتابِ، وحَسْبُكَ مِن هذه الشبكةِ أن القرآنَ العظيمَ سمَّى ما في الكونِ من أدلةٍ على وجودِ المعبودِ بحقٍّ: آياتٍ، وسمَّى ما في القرآنِ آياتٍ، وفي بعضِ المواضعِ ذَكَرَ آياتِ الكونِ، ثمَّ عقَّبَ بمِثلِ قولِه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الجاثية: ٦].

وهذا يَعني قوَّةَ التماثُلِ بين آياتِ اللَّهِ في الكونِ، وآياتِ اللَّهِ في الكتابِ، وإذا كان هناك كتائبُ من العلماءِ

المُنقطِعينَ في علومِ الكونِ، وأنَّ هذه الكتائبَ تُرِينا آياتِ اللَّه بعُيونِنا؛ فالواجبُ أن يُقابَلَ هذا بالجِدِّ الواجبِ البالغِ أَقصى الجُهدِ في آياتِ اللَّهِ الَّتي أَنزَلَها علينا، والَّتي يَرى النَّاسُ -مِن نتائجِ جِدِّنا فيها- آياتِ اللَّهِ بعُقولِهم، وكما أنَّ الكونَ يَتَّسِعُ لجهودِ البشرِ جميعًا في كشفِ أسرارِه؛ كذلك الكتابُ العزيزُ يتَّسِعُ لجهودِ البشرِ جميعًا في كشفِ أسرارِه.

وشيءٌ آخَرُ في هذا التَّماهي بين آياتِ اللَّهِ في الكتابِ، وآياتِ اللَّهِ في الكونِ، حتى كأنَّ الكتابَ كونٌ مقروءٌ، نزَلَ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ، أقولُ: هذا التَّماهي يَعني مِن وجهٍ آخَرَ أنه كما أنَّ أيَّ شيءٍ في الكونِ ليس له مصدرٌ لوجودِه إلا اللَّهُ، فكذلك كلُّ آيةٍ في هذا المكتوبِ يستحيلُ أن تكونَ مِن غيرِ اللَّهِ، وأنَّ إعجازَ القرآنِ هو ذاتُه إعجازُ هذه الآفاقِ، وهذه الأنفُسِ.

والعجزُ عن الإتيانِ بسُورةٍ مِن مِثلِه هو ذاتُه العجزُ عن خَلقِ أرضٍ كهذه الأرضِ، وسماءٍ كهذه السماءِ، والمُعجِزُ قليلُه مِثلُ كثيرِه.

هذا: وشيءٌ آخَرُ يجبُ الانتفاعُ به في تجديدِ الخطابِ الدِّينيِّ، وهو أيضًا عَقدُ شبكةٍ بين البلاغِ الَّذي هو رسالةُ سيِّدِنا محمَّدٍ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه وبين الخطابِ الدِّينيِّ الَّذي هو رسالةُ وَرَثةِ النبوةِ مِن العلماءِ العاملين، وكما أنه عليه السلامُ ليس عليه إلا البلاغُ؛ كذلك أصحابُ الخطابِ الدِّينيِّ ليس عليهم إلا هذا الخطابُ الدِّينيُّ الَّذي هو البلاغُ.

وعلينا أن نَتلمَّسَ ما يُقيمُ صلاحَ الخطابِ الدِّينيِّ وإصلاحَه مِن بلاغِه ﷺ، ولو رَجعنا إلى السُّنَّةِ لَخرَجنا بكلِّ ما يَتطلَّبُه تجديدُ الخطابِ الدِّينيِّ، وسأضربُ مَثَلًا لذلك مِن كلامِه عليه السلامُ المشهورِ المُتداوَلِ: «**أَربَعٌ مَن كُنَّ فيه كانَ مُنافِقًا خالصًا، ومَن كانت فيه خُلَّةٌ منهنَّ كانت فيه خُلَّةٌ مِن نفاقٍ حتَّى يَدَعَها: إذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا وَعَدَ أَخلَفَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ**»(١).

(١) أخرَجه البخاريُّ (٣٤) ومسلمٌ (٥٨) من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو رضي الله عنهما.

أوَّلُ ما يُلاحَظُ أنه عليه السلامُ بَلَغَ الغايةَ في بعثِ النفوسِ الَّتي يُودِعُها بلاغَه، وجَعَلَها تستشرفُ وكلُّها يَقَظةٌ؛ فإذا جاء البيانُ قرَّ فيها وتمكَّنَ، وقد قال العلماءُ: ليس إخبارُك الشيءَ بغتةً غفلًا كإخبارِك به بعدَ التَّهيئةِ والتَّوطئةِ، وأظنُّهم أخذوا هذا الأصلَ البلاغيَّ من طريقتِه صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه.

راجِع كيفَ استثارَ بيانُه ﷺ نفوسَ مَن يُخاطِبُهم بقولِه: «**أَربَعٌ مَن كُنَّ فيه...**»، فتشوَّقَتِ النُّفوسُ إلى معرفةِ هذه الأربعِ، ثمَّ ذَكَرَها عليه السلامُ، وهذا مَنزِعٌ من مَنازِعِ بيانِه صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه تكرَّرَ في أحاديثَ كثيرةٍ مِثلِ: «**ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمانِ...**»[1]، و«**سبعةٌ يُظِلُّهم اللَّهُ تحتَ ظلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلَّا ظِلُّه...**»[2]، إلى آخرِه.

---

(١) أخرَجه البخاريُّ (١٦) ومسلمٌ (٤٣) من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه.

(٢) أخرَجه البخاريُّ (٦٦٠) ومسلمٌ (١٠٣١) من حديثِ أبي هُريرةَ رضي الله عنه.

ثم راجِع كيف عبَّرَ عليه السلام عن المعنى، راجعْ قولَه: «مَن كُنَّ فيه»، وكان يُمكِنُ أن يقولَ: مَنِ اتَّصفَ بهنَّ، والفرقُ شاسعٌ بين الكلامَينِ؛ لأنَّ كلامَه صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه يَعني أنه صارَ ظرفًا لهنَّ، وهنَّ سَواكِنُ فيه، وكأنَّهنَّ غُرِسنَ فيه وأُقِمنَ فيه كما يُقِيمُ السَّاكنُ في سَكَنِه، وهذا يَعني: مَن وَقَعَ فيهنَّ ثمَّ سارَعَ ورَجَعَ قبل أن يَكُنَّ فيه فليس مُنافقًا، وإنما هي الذنوبُ أو الخطايا الَّتي لا يَعرَى منها النَّاسُ.

ثم كلمةَ: «**منافقًا خالصًا**»؛ ومعناها أن الكاذبَ في حَلِفِه والغادرَ في عهدِه والمُخلِفَ في وعدِه والفاجرَ في خصومتِه لم يَبقَ في نفسِه بعد هذه الأربعةِ مكانةٌ لفضيلةٍ، وأنَّ سُكنى هذه المُوبِقاتِ في النفسِ تَطرُدُ كلَّ خيرٍ فيها.

وتكفينى هاتانِ اللَّمحتانِ المُقتبَستانِ من بلاغةِ بلاغِه ﷺ:

اللَّمحةُ الأُولى: هي براعةُ ولباقةُ وبلاغةُ التعاملِ مع الجماعةِ المُخاطَبةِ بالخطابِ الدِّينيِّ، وكيف نُهيِّئُها ونَستثيرُها لِتَلقِّي ما نريدُه من كلامٍ صحيحٍ دقيقٍ مُحكَمٍ.

واللَّمحةُ الثَّانيةُ: هي الدقةُ البالغةُ في العبارةِ عن المعنى

المرادِ إيصالُه؛ حتى يكونَ دِينًا لا يَحُومُ حوله رَيبٌ.

ثم إننا قد نجدُ شيئًا مثيرًا ومُبهَمًا في البلاغِ الَّذي وافانا من الحيِّ القادرِ، ونحتاجُ إلى وقفةٍ عنده لِنَتبيَّنَ سِرَّهُ؛ مِن ذلك ما رواهُ سيِّدُنا المصطفى: مِن أنَّ سارقَ البعيرِ يأتي يومَ القيامةِ وعلى رَقَبتِه بَعيرٌ له رُغاءٌ[١]، وأنَّ سارقَ الشَّاةِ يأتي يومَ القيامةِ وعلى رقبتِه شاةٌ لها ثُغاءٌ[٢].

قال عليه السلامُ: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يأتي يومَ القيامةِ وعلى رقبتِه بعيرٌ له رُغاءٌ، يقولُ: يا رسولَ اللَّهِ أَغِثني؛ فأقولَ: لا أَملِكُ لك شيئًا قد بلَّغتُكَ**»[٣]، ثم يَمضي الحديثُ فيَذكُرُ: الفرسَ الَّذي له حمحمةٌ[٤]، والبقرةَ الَّتي لها خُوارٌ[٥]،

---

(١) «الرُّغاءُ»: صوتُ الإبلِ. راجع: «النِّهاية في غريب الحديث والأثر» لابنِ الأثيرِ: ٢/ ٢٤٠.

(٢) «الثُّغاءُ»: صِياحُ الغنَمِ. م.ن: ١/ ٢١٤.

(٣) أخرَجه البخاريُّ (٣٠٧٣) ومسلمٌ (١٨٣١) من حديثِ أبي هُريرةَ رضي الله عنه.

(٤) الحَمْحَمةُ: صَوْتُ الفَرَسِ دُونَ الصَّهِيلِ. راجع: «النِّهاية في غريب الحديث والأثر»: ١/ ٤٣٦.

(٥) الخُوارُ: صَوتُ البَقرِ. م.ن: ٢/ ٨٧.

والشَّاةَ الَّتي لها ثُغاءٌ، وفي الكلِّ: «**يقولُ: يا رسولَ اللَّه أَغِثني؛ فأقول: لا أملكُ لكَ شيئًا، قد بلَّغتُكَ**».

والمرادُ بالنهيِ في قولِه عليه السلامُ: «**لا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم...**» هنا ليس ما دخَلَ عليه حرفُ النهيِ، وإنما النهيُ عنِ الفعلِ المؤدِّي إلى هذا، يَعني: لا تَفعَلُوا حتى يكونَ هذا الَّذي بلَّغتُكم، وليسَ هذا مقصودي، وإنَّما مقصودي هو أن صاحبَ هذه الخزايا في المشهدِ المشهودِ يلتفتُ إلى سيدِنا الرسولِ ويطلبُ منه الغَوثَ، وأنَّ سيدَنا عليه السلام يلتفتُ إليه ويقولُ له: «**لا أَملِكُ لك شيئًا**»، ومعناها أني لو كنتُ أَملِكُ لك شيئًا لأَغثتُك، وهذا يُظهِرُ فَرَط حبِّ أهلِ الشهادتينِ لرسولِ اللَّه ﷺ وإن كانوا مُنحرِفِينَ، ويُظهِرُ حبَّ رسولِ اللَّه ﷺ لأمَّتِه وإن كانوا أصحابَ كبائرَ.

وأقولُ مرَّةً ثانيةً: ليسَ هذا مقصودي، وإنما مقصودي أن هذه الأموالَ المسروقةَ كانت مسالمةً للذي سَرَقَها، وكانت فقط تُشهِّرُ به، فالبعيرُ يَرغُو، والفرسُ يُحمحِمُ، والبقرةُ تَخُورُ، والشَّاةُ تَثغُو، وهذا بخلاف مالِ مانعِ

الزكاةِ؛ فقد ذكرَ ﷺ أنه لا يجيءُ يومَ القيامةِ وهو على رقبتِه يصيحُ، وإنَّما ذكرَ أنَّها إن كانت إبلًا تجيءُ يومَ القيامةِ وهي موفورةُ العددِ وموفورةُ السَّلامةِ، وقد بُطِحَ لها في قاعٍ[1] وهي تَطَؤُه بأخفافِها وتَعَضُّه بأنيابِها، يَمُرُّ عليه أوَّلُها فإذا جاء آخِرُها عاد عليه أوَّلُها، وأنَّ الَّذي يَفعَلُ به هذا ليس هو نِصابَ الزَّكاةِ الَّذي مَنَعَه، وإنَّما المالُ كلُّه، وهكذا إذا كان غَنَمًا أو كان بقرًا، كلُّ ثروتِه تَطَؤُه بأَظلافِها وتَعَضُّه بأفواهِها وتَنطَحُه بقُرونِها، وسأذكُرُ لفظَه عليه السَّلامُ في الذَّهبِ والفضَّةِ؛ لأنَّ فيه ما ليس في غيرِه.

قال عليه السلام: «**ما مِن صاحبِ ذَهَبٍ ولا فضَّةٍ لا يُؤدِّي منها حقَّها إلَّا إذا كانَ يومُ القيامةِ صُفِّحَت له صفائحُ مِن نارٍ، فأُحمِيَ عليها في نارِ جهنَّمَ، فيُكوَى بها جَنبُهُ وجَبينُهُ وظَهرُهُ، كلَّما بَرَدَت أُعيدَت له في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتَّى يُقضى بينَ العبادِ، فَيَرى سبيلَه؛ إمَّا إلى**

---

(١) أي: أُلقِيَ صاحِبُها على وجهِه لِتطأَهُ. والقاعُ: المكانُ المستوي. م.ن: ١/ ١٣٤، ٤/ ٤٨.

جنَّةٍ، وإمَّا إلى نارٍ»[١]، انتهى ما أردتُه من كلامِه ﷺ.

وقبلَ أن أتكلَّمَ في الَّذي أردتُه أُراجعُ قولَه عليه السلامُ: «**صفائحُ مِن نارٍ، فأُحمِيَ عليها في نارِ جهنَّمَ**»، وتأمَّل هذا لِتَقِفَ على سرِّه، وراجِع «**صفائحُ مِن نارٍ**»؛ وكان هذا يَكفي، وإنما أضافَ عليه السلامُ «**فأُحمِيَ عليها**»، وكان هذا يَكفي، وإنما أضافَ عليه السلامُ «**في نارِ جهنَّمَ**» يعني: لم تَكفِ أن تكون الصفائحُ من نارٍ، وإنما أُحمِيَ عليها، ثم أُحمِيَ عليها في الجحيمِ، يعني صارَ لها مَوقِدٌ في داخلِ الجحيمِ يُحمى عليها في هذا الموقدِ.

وعليك أن تُراجِعَ أنت لِتُدرِكَ مدى الألمِ ومدى الغضبِ، وأنَّ هذا شاملٌ لكلِّ ذَهَبِه وفضَّتِه الَّتي هي مِلكُه واكتسَبَها من حلالٍ، ولكنه لم يؤدِّ حقَّ اللَّهِ فيها، ولم يُكتفَ في تعذيبِه بالقَدرِ الَّذي مَنَعَه، وإنما صار المالُ كلُّه جحيمًا، وأشدَّ من الجحيمِ؛ إنه يُحمَى عليه في داخلِ

---

(١) أخرَجه مسلمٌ (٩٨٧) من حديثِ أبي هُريرةَ رضي الله عنه. والحديثُ أصلُه في «البخاريِّ» (١٤٠٢) دون ذِكرِ الذَّهبِ والفضَّةِ.

الجحيمِ، ولم يُكتفَ بأن يُحمى عليه بالجحيمِ، وقل لي باللَّهِ عليك، أيُّهما أَولى بهذا العذابِ: الَّذي سَرَقَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ أم الَّذي اكتسَبَها مِن وجهِ الحلالِ ومَنَعَ حقَّ اللَّهِ فيها؟ ولماذا كان الغضبُ على هذا أشدَّ؟

لا شكَّ أنه عليه السلامُ يُبلِّغُنا عن ربِّه، وأنَّه سبحانه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وإنما نريدُ البحثَ عن الحكمةِ؛ لأنَّ في معرفتِها خيرًا كثيرًا لنا، وزكاةُ المالِ طُهرٌ له، وسُمِّيَت زكاةً؛ لأنها تُطهِّرُ المالَ، وقد قال عليه السلامُ في الحديثِ الَّذي معَنا: «**لا يُؤدِّي منها حقَّها**»؛ فدلَّ ذلك على أن الزكاةَ الَّتي هي حقُّ اللَّهِ والَّتي هي حقُّ الفقراءِ هي أيضًا حقُّ المالِ، وكأن المالَ ذو حقٍّ يُطالِبُ به، ويغضبُ عند مَنعِه، والزكاةُ للفقراءِ والمساكينِ وهم الطبقةُ المطحونةُ في المجتمعِ.

وتجدُ المولى -جلَّ وتقدَّسَ، وهو الغنيُّ الحميدُ- عند هذه الطبقةِ؛ والفقراءُ عيالُه، والصَّدقةُ تَقَعُ في يدِه قبلَ أن تَقَعَ في يدِ المسكينِ[1]، وقد فَرَضَ علينا الصدقةَ الواجبةَ

(١) إشارة إلى ما أخرَجه الطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير» (١٢١٥٠)، =

الَّتي هي الزكاةُ، ونَدَبنا إلى صَدَقاتِ البِرِّ، وجَعَلَ مَثلَها كمَثَلِ حبَّةٍ أَنبَتَت سبعَ سنابلَ في كلِّ سُنبلةٍ مِئةُ حبَّةٍ، ثمَّ هو سبحانه يُضاعِفُ لمَن يشاءُ.

وأخبرَ سبحانه أنَّه يُثمِّرُها لنا حتى تَصيرَ مِثلَ أُحُدٍ(١)، وأنَّه جلَّ وتقدَّسَ يَقينَا النَّارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ(٢)، وهذا وغيرُه

= والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٣٢٤٩) من حديث ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، مرفوعًا: «ما نقصَتْ صدقةٌ من مالٍ قطُّ، وما مدَّ عبدٌ يدَهُ بصدقةٍ إلا أُلقِيَتْ بيدِ اللَّهِ قبلَ أن تَقَعَ في يدِ السَّائلِ...».
وقد رُوي هذا المعنى أيضًا في أحاديثَ أخرى عن أبي هريرةَ وعائشةَ رضي الله عنهما، ورُوي كذلك عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه موقوفًا عليه.

(١) إشارة إلى ما أخرَجه البخاريُّ (١٤١٠) ومسلمٌ (١٠١٤) من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «مَن تصدَّقَ بعَدلِ تمرةٍ مِن كَسبٍ طيِّبٍ، ولا يقبَلُ اللَّهُ إلَّا الطَّيِّبَ، وإنَّ اللهَ يتَقَبَّلُها بيمِينِه، ثمَّ يُرَبِّيها لصاحبِه، كما يُرَبِّي أحدُكُم فَلُوَّهُ، حتَّى تكونَ مثلَ الجبلِ».
هذا لفظُ البخاريِّ، وفي روايةٍ خارجَ «الصَّحيحينِ»: «حتَّى تَبلُغَ التَّمرةُ مثلَ أُحُدٍ».

(٢) يدلُّ عليه حديثُ عَدِيِّ بنِ حاتمٍ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «اتَّقُوا النَّارَ ولو بِشِقِّ تمرةٍ». أخرَجه البخاريُّ (١٤١٧) ومسلمٌ (١٠١٦).

كثيرٌ جدًّا يدُلُّ دَلالةً ظاهرةً على أن رعايةَ هذه الطبقةِ المطحونةِ في مجتمعاتِنا عندَ اللَّهِ بمكانٍ؛ فإذا أدارَ صاحبُ المالِ ظَهرَه إلى ذلك كلِّه كان جزاؤُه ما ترى.

وأصلُ هذا الحديثِ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] والمراد: ولا يُنفِقون زَكاتَها في سبيلِ اللَّهِ، ثم قال سبحانه: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة: ٣٥].

راجع قولَه: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾، وقوله: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾، ولم يَقُل سبحانه: هذا عقابُ ما كَنَزتم، وذُوقوا عقابَ ما كنتم تكنِزون، وإنما هو ما كَنَزنا، ونذوقُ الَّذي كَنَزنا، يَعني أن صفائحَ النَّارِ هي ذاتُ الذهبِ.

وأنَّ الإبلَ الَّتي تَطَأُ مانعَ الزكاةِ بأخفافِها وتَعَضُّه بأفواهِها هي ذاتُ إبِلِه، والحديثُ بيانٌ للآيةِ، والَّذي غَلَّ من مالِ الغنيمةِ أو الَّذي سرقَ من مالِ غيرِه إنما اعتدى

اعتداءً واحدًا، وهذا اعتدى على المالِ، ومنعَه حقَّه، واعتدى على أصحابِ الحاجاتِ ومَنَعَهم حقَّهم، وأدارَ ظهرَه لوعيدِ اللَّهِ، وصرَفَ نظرَه عن وعدِه سبحانه بالأضعافِ المُضاعَفةِ.

والثوابُ والعقابُ لا يكونُ بحجمِ العملِ، وإنما يكونُ بما جَرَى في القلوبِ، فقد تتَّقي النَّارَ بشِقِّ تمرةٍ، أو تتقلَّبُ في الجنةِ بسببِ غُصنِ شَوكٍ أَزحتَهُ عن الطريقِ خشيةَ أن يُؤذَى المسلمون[1]، وقد تُصفَّحُ لك الصفائحُ مِن نارٍ ويُحمى عليها في النَّارِ؛ لأنك مَنَعْتَ حقَّ الفقيرِ والمسكينِ وابنِ السبيلِ.

ثم إن المالَ الَّذي في يَدِكَ هو مالُ اللَّهِ جَعَلَك اللَّهُ مُستَخلَفًا فيه، ثم سألك أن تُعطِيَ من مالِه لعيالِه فأَبَيتَ، وهذا عقابُه لك، ولا تلُومَنَّ إلا نفسَك.

---

(١) إشارة إلى ما أخرَجه البخاريُّ (٦٥٢) ومسلمٌ (١٩١٤) من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ، وَجَدَ غُصنَ شَوكٍ على الطَّريقِ فأخَّرَه، فشَكَرَ اللَّهُ له، فغَفَرَ له».

والخلاصةُ هو تأمُّلُ حجمِ الغضبِ على مَن قَسا قلبُه؛ فمَنَعَ حقَّ الفقراءِ والمساكينِ والمطحونين، ولم يَلتفِت إلى أن الَّذي أعطاهُ هذا المالَ وَصَفَهم بأنَّهم عِيالُه، وأنَّ الصدقةَ عليهم تَقَعُ في يدِ اللَّهِ قبلَ أن تَقَعَ في يدِ المسكينِ، وأنَّ الَّذي يُعطيهم وصفَه ربُّنا بأنَّه يُقرِضُ اللَّهَ قرضًا حسنًا، إلى آخِرِ ما ترى من حفاوةِ ربِّنا بهذه الطبقةِ البائسةِ وإكرامِه سبحانه لمَن يُكرِمُهم، وغَضَبِه جلَّ شأنُه للذي لا يَرِقُّ لهم.

ونحن حينَ نُحصِّلُ كلامَ أهلِ العلمِ بدقَّةٍ وسدادٍ، وإحاطةٍ لدقيقِه وجليلِه؛ نكونُ قد أَمسَكنا ما أَنزَلَه اللَّهُ على رسولِه فاستقى منه النَّاسُ، وحين نُفكِّرُ ونُراجِعُ ونجتهدُ بعقولِنا لِنُنبِتَ نَبتةً -وإن قَلَّت- فنحنُ على طريقِ الاجتهادِ وطريقِ التَّجديدِ، ثم يُصيبُ كلٌّ منَّا ما يُتاحُ له، وما دُمتَ تقرأُ وتراجعُ وتفكِّرُ وتستخرجُ فأنت مجدِّدٌ.

التحصيلُ وحدَه هو إمساكُ الماءِ، أما أن نَجعَلَ التحصيلَ بدايةَ الطريقِ، ثم نُعقِبَهُ بالتدبرِ والتفكيرِ والتفتيشِ فيما حصَّلناهُ، والبحثِ في خباياهُ عن خفاياهُ؛ فنحنُ نجدِّدُ.

وإذا كنَّا نقولُ: إن المجدِّدين في زمانِنا هم: شلتوت، والرَّافعي، ومحمود شاكر، والغزالي، والخضر حسين، ونَذكُرُ ما نَذكُرُ، فإنَّنا نَعُدُّ الَّذين قطعوا أشواطًا تُذكَرُ ولبِناتٍ تُذكَرُ، ولهم خُطُواتٌ أَوسَعُ، وهذا لا يَمنَعُ مِن أن يكونَ أكثرُ المُنقطِعينَ للبحثِ والتدبرِ والنظرِ من المجدِّدين، وسيكونُ هذا موضوعَ المقالةِ الثَّالثةِ، إن شاءَ اللَّهُ.



مِن مَداخِلِ التَّجدِيدِ

(٣)

أشرتُ في الَّذي مضى إلى أنَّ دراسةَ الكتابِ والسُّنَّةِ بمَعزِلٍ عن الواقعِ دراسةٌ جيِّدةٌ، ولكنَّها كأنَّها مُعلَّقةٌ في الهواءِ؛ أمَّا الدِّراسةُ المُشتبِكةُ مع الواقعِ والمُتداخِلةُ معه والمُتغلغِلةُ فيه فهيَ الدراسةُ الأنفعُ والأنجعُ والأقدرُ على أن تُرِيَكَ الأمرَ الإلهيَّ في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ لأنَّك إن أَحسَنتَ وعيَ ما في الكتابِ والسُّنَّةِ وأَحسَنتَ وعيَ الواقعِ رأيتَ أنَّ هذه الآياتِ في الكتابِ كأنَّها نزلتِ الآنَ.

وكأنَّ هذا الواقعَ هو بمثابةِ سببِ نزولِها؛ لأنَّها تُعالِجُ ما نحن فيه مِنِ التباسٍ، وما نحن فيه مِن ظُلمٍ، وما نحن فيه مِن فسادٍ، وما نحن فيه مِن تَفرُّقٍ وتَنازُعٍ؛ لأنَّ كلَّ هذه الرذائلِ الَّتي تُصيبُ حياتَنا بالعَطَبِ وبالتخلُّفِ لا دواءَ لها إلا هذا الَّذي أَنزَلَهُ ربُّنا، وما تكلَّمَ به نبيُّنا صلواتُ اللَّهِ

وسلامُه عليه، الَّذي كأنَّه يعيشُ معنا، ويرى ما بيننا مِن بغضاءَ؛ فيقولُ لنا: «**لا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفسِه**»[1]، ويرى ما بيننا مِن تَنازُعٍ فيقولُ لنا: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ويرى مَن يَحمِلُون السِّلاحَ علينا فيقولُ لهم: «**مَن حَمَلَ علينا السِّلاحَ فَلَيسَ منَّا**»[2].

ويرى الظُّلمَ والقَهرَ الواقعَ علينا فيقولُ: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ [الحجرات: ٩] أيِ: اعدِلوا.

---

(١) أخرَجه البخاريُّ (١٣) ومسلمٌ (٤٥) من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه. وقد تقدَّم.

(٢) الحديثُ متَّفقٌ عليه عن كلٍّ من:

عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ رضي الله عنهما: «صحيح البخاريِّ» (٦٨٧٤) و«صحيح مسلم» (٩٨).

أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه: «صحيح البخاريِّ» (٧٠٧١) و«صحيح مسلم» (١٠٠).

وقد تفرَّد به مسلمٌ عن كلٍّ من: سلمةَ بنِ الأكوعِ رضي الله عنه (٩٩) بنحوِه، وأبي هُريرةَ رضي الله عنه (١٠١).

«إنَّ المُقسِطِينَ عندَ اللَّهِ على منابرَ مِن نُورٍ، عن يمينِ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ، وكِلتا يَدَيهِ يمينٌ»[(١)].

ولا تَظلِمُوا النَّاسَ، ولا تَقهَرُوهم: **«إنَّ شرَّ الرِّعاءِ الحُطَمةُ»**[(٢)]، والرِّعاءُ بكسرِ الرَّاءِ: الرُّعاةُ الَّذين يَرعَونَ مصالحَ النَّاسِ، والحُطَمةُ: هو الظالمُ الَّذي يَقهَرُ ويَقتُلُ ويُحطِّمُ إنسانيَّةَ الإنسانِ.

دراسةُ الكتابِ والسُّنَّةِ مع هذا التشابُكِ مع الواقعِ تُريكَ الأمرَ الإلهيَّ في دِينِ اللَّهِ، وأنَّه يتجدَّدُ مع تجدُّدِ الأيامِ والأحداثِ والأحوالِ؛ لأنَّ الَّذي أَنزَلَهُ يَعلَمُ ما سيكونُ عليه خَلقُهُ، وأنزلَهُ سبحانه شفاءً ونورًا لِيُخرِجَ كلَّ جيلٍ مِن الظُّلمةِ الَّتي هي القهرُ والظلمُ والقمعُ والتخلفُ والبؤسُ والفقرُ، إلى النورِ الَّذي هو العدلُ والأمنُ والتقدمُ. والتَّجديدُ في بعضِ مَعانيهِ هو إحياءُ ما اندرَسَ.

---

(١) أخرَجه مسلمٌ (١٨٢٧) من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو رضي الله عنهما.

(٢) أخرَجه مسلمٌ (١٨٣٠) من حديثِ عائذِ بنِ عمرٍو رضي الله عنه.

ويُلاحَظُ أنَّ ثمَّةَ إلحاحًا في خطابِ النَّاسِ يقولُ: إن مكانَ الدِّينِ هو المساجدُ والمحاريبُ، ولا شأنَ له بالَّذي نحنُ فيه من شُئونِ الدُّنيا، والَّذين دَرَسُوا أَوَّلِيَّاتِ ما في الكتابِ والسُّنَّةِ يقولون: إنَّ هذا الخطابَ يَتحدَّثُ عن دِينٍ آخَرَ ليس هو الإسلامَ؛ لأنَّ كلَّ ما في الإسلامِ مِن أمرٍ ونهيٍ مُتغلغِلٌ في مصلحةِ الجماعةِ، وليس فيه أمرٌ واحدٌ ولا نهيٌ واحدٌ إلا وهو مُتشابِكٌ مع مصلحةِ الجماعةِ نَجِدُ العدلَ بدلَ الظُّلمِ، والرحمةَ بدلَ القسوةِ، والمحبةَ بدلَ البغضاءِ، والصدقَ بدلَ الكذبِ، والحقَّ بدلَ الباطلِ، والإيثارَ بدلَ الأثرةِ، والإتقانَ والإحسانَ بدلَ الغشِّ والفسادِ.

وقُل لنفسِك وكن صادقًا معها: أيُّ شيءٍ في هذا بعيدٌ عن حياةِ النَّاسِ ويجبُ أن يُحبَسَ في المساجدِ والمحاريبِ؟

ثم إن العبادةَ الَّتي هي بين العبدِ وربِّه إنما هي إصلاحٌ لهذه النفسِ الَّتي تُزاوِلُ عِمارةَ الأرضِ، فتُؤمِنُ باللَّهِ الَّذي هو الحقُّ والعدلُ، ثم تعملُ العملَ الصَّالحَ الَّذي هو التقدمُ والفلاحُ والازدهارُ، وكلُّ ما يَدخُلُ في صالحِ الأعمالِ الَّتي

تَصلُحُ بها أحوالُ البلادِ والعبادِ والَّتي تعملُها الشعوبُ المتقدمةُ بعقلِها وحِكمتِها وهدايتِها نحوَ مصالحِها الدنيويَّةِ.

اشرح ليَ المرادَ بعملِ الصَّالحاتِ في الكتابِ، وكم تكرَّرت؟ وهل نَجِدُ لها معنًى إلا زرعَ الصلاحِ والإصلاحِ في كلِّ مَناحي الحياةِ ومواجهةَ الفسادِ والإفسادِ؟

كلُّ الَّذين يَقرءُون الكتابَ والسُّنَّةَ يعلمون أن كلَّ ما فيهما إنما هو لمصلحةِ الشعوبِ، ولِتَقدُّمِها، ولإعدادِها إعدادًا تُعمَّرُ بها أوطانُها، وتُحمَى بها أرضُها وأعراضُها؛ ولهذا كان هذا الدِّينُ غيرَ قابلٍ لأن يُحبَسَ في المساجدِ، وليس مِن الذنوبِ أبشعُ من محاربةِ دِينِ اللَّهِ؛ لأنه ليس معصيةً فحسْبُ، وإنما فيه سوءُ أدبٍ مع اللَّهِ الَّذي خَلَقَك ورَزَقَك وسوَّاك فعَدَلَكَ.

وَاعلَم أنَّ اللَّهَ سبحانه لم يُنزِلِ الكتابَ إلا لِنَعمَلَ بالَّذي فيه، ومِن صُلبِ العملِ بالَّذي فيه الحُكمُ بما أَنزَلَهُ اللَّهُ فيه، وتصوَّر مِقدارَ التَّحدِّي للذي خَلَقَ حينَ تَقِفُ في وَجهِ الحُكمِ بما أَنزَلَ؟

وكنتُ وأنا أَدرُسُ ما درستُ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ أجدُ الرعايةَ الحميمةَ للجماعةِ الإنسانيَّةِ، فأقولُ في نفسي: لو أنَّ غيرَ المسلمِ قرأَ هذا لطالَبَ بتطبيقِه؛ لأنه لن يَجِدَ لحياةِ النَّاسِ أهنأَ ولا أبرَّ منه؛ لأنه شرعُ الَّذي هو أرحمُ بالنَّاسِ كافَّةً مِن آبائِهم وأمَّهاتِهم، وليس هذا تكلُّفًا ولا مزايدةً؛ لأنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لا يحبُّ المتكلِّفين.

وكلما سَمِعتُ أو قرأتُ لواحدٍ مِن أهلِ القِبلةِ يُطالِبُ بإبعادِ الدِّينِ عن الشأنِ العامِّ عَذَرتُه، وقطعتُ بأنَّه لم يقرأ شيئًا عن هذا الدِّينِ، ولو أنهم قرءوا فيه نِصفَ ما قرءوا في المذاهبِ الَّتي اعتنقوها لتغيَّرَ الحالُ.

ولا أَتصوَّرُ أنَّ أحدًا يُحارِبُ الحُكمَ بما أَنزَلَ اللَّهُ وهو يَعلَمُه؛ لأنَّ فِطرتَنا جميعًا أنَّنا مسلمون، وإنما هو الجهلُ بدِينِ اللَّهِ.

وقراءةُ تاريخِ تجديدِ الدِّينِ تُظهِرُ لنا حقائقَ تُوجِبُ علينا جميعًا الوقوفَ والمراجعةَ؛ **أوَّلُها**: أن أوَّلَ المجدِّدين باتفاقِ علماءِ الأمَّةِ هو عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ على رأسِ المئةِ

الأُولى الَّتي كان فيها رسولُ اللَّهِ ﷺ وأصحابُه وكبارُ التَّابعين، وأوَّلَ ما ظهَرَ التَّجديدُ في الأمَّةِ كان مِن قَصرِ الحُكمِ الَّذي هو قَصرُ السياسةِ، وكان مِن رَجُلٍ قَبَضَت يمينُه على الشأنِ العامِّ، وقام تجديدُه على إحياءِ ما اندرَسَ في شئونِ الحُكمِ؛ كالعدلِ بين النَّاسِ، والاجتهادِ في إقامةِ الحقِّ، وتحقيقِ المساواةِ والرحمةِ، وإحساسِ الخليفةِ بالمسئوليَّةِ بين يَدَيِ اللَّهِ عن كلِّ فردٍ مِن أبناءِ الدولةِ، وأنَّه مسئولٌ عن الأكبادِ الجائعةِ، والأجسامِ العاريةِ.

وقد مَنَعَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ كُسوةَ الكعبةِ؛ لِيَجعلَها للأكبادِ الجائعةِ[1]، وهذا الواقعُ الَّذي لم يكُن إلا بتدبيرِ اللَّهِ يؤكِّدُ أن تجديدَ الدِّينِ -أو تجديدَ الخطابِ الدِّينيِّ- يجبُ أن يكونَ شاملًا، وليس هناك أحدٌ بمَعزلٍ عنه، واللَّهُ سبحانه وتعالى يَزَعُ بالسلطانِ ما لا يَزَعُ بالقرآنِ، والنَّاسُ

---

(١) أخرج أبو نُعيم في «حِلية الأولياءِ»: ٥/٣٠٦: من طريقِ نَوْفَلِ بنِ أبي الفُرَاتِ قال: كَتَبَتِ الحَجَبَةُ إلى عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ يَأْمُرُ للبَيْتِ بِكِسْوَةٍ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ: إِنِّي رَأَيْتُ أَنْ أَجْعَلَ ذَلِكَ في أَكْبَادٍ جَائِعَةٍ؛ فَإِنَّهُمْ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنَ الْبَيْتِ.

على دِينِ مُلوكِهم؛ فوَجَبَ أن تَبدَأَ حركةُ التَّجديدِ والإصلاحِ مِن هناك، هكذا يقولُ التَّاريخُ.

ثم إنَّ الاشتغال بالسُّلطةِ يَشغَلُ النَّاسَ؛ فيحتاجون أكثرَ إلى النُّصحِ والتذكيرِ، وكان الصَّادقون من علماءِ الأمَّةِ يتعهَّدونهم بذلك، وكانوا هم يطلبون من العلماءِ أن يتعهَّدوهم وأن يُذكِّرُوهم باللَّهِ واليومِ الآخِرِ.

ومِن المفيدِ أن نحاولَ استخراجَ الصفةِ الجامعةِ لكلِّ مَن أَرسَلَهمُ اللَّهُ على رأسِ كلِّ مئةِ سنةٍ ليُجدِّدوا للأمَّةِ دِينَها، وهم مذكورون في الأربعةَ عَشَرَ قرنًا الَّتي مرَّت بها الأمَّةُ، وأوَّلُهم -كما قلتُ- بإجماعِ الأمَّةِ هو عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الَّذي كان مِثالًا صالحًا في البدايةِ بنفسِه ليكونَ قدوةً صالحةً للأمَّةِ كلِّها.

ومعرفةُ الصفةِ المشتركةِ الَّتي كان عليها هؤلاء الكرامُ المجدِّدون لو أحسنَّا الانتفاعَ بها ستُحَوِّلُ حركةُ التَّجديدِ هذه إلى حركةٍ مباركةٍ؛ لأنها ستَنقُلُنا مِن الحديثِ عن التَّجديدِ إلى مزاولةِ التَّجديدِ، وهذا هو المطلوبُ، والفرقُ شاسعٌ بين أن

تتحدَّثَ عن العدلِ وأن تُزاوِلَ العدلَ، وأن تتحدَّثَ عنِ الصلاحِ والإصلاحِ وأن تُزاوِلَ الصلاحَ والإصلاحَ.

كان على رأسِ المئةِ الثَّانيةِ الإمامُ الشَّافعيُّ بلا خلافٍ، وعلى رأسِ المئةِ الثَّالثةِ ابنُ سُرَيجٍ القاضي بلا خلافٍ، وعلى رأسِ المئةِ الرَّابعةِ أبو بكرِ بنُ الطَّيِّبِ الباقلانيُّ، وأكتفي بهؤلاء؛ لأنهمُ السَّابقون، ولأنهم يُمثِّلون الَّذي أردتُه؛ وهو أن التَّجديدَ لم يكُن إلا مِن الَّذين بَلَغُوا الغايةَ في الانقطاعِ للعِلمِ، وقاموا وقَعَدُوا بالَّذي هم بصددِه، ولم يَشغَلهُم عن طلبِ العِلمِ شاغلٌ، وإنما شَغَلَهُم طلبُ العِلمِ عن كلِّ الشواغلِ، وإذا وجدتَ واحدًا من هؤلاء فاعلم أنَّه مِن المجدِّدين، عَرَفَهُ النَّاسُ أو جَهِلُوه.

ولو قلتَ: كان الشَّافعيُّ أكثرَ أهلِ المئةِ الثَّانيةِ قراءةً، وأَوفَرَهم تحصيلًا، وأَنفَذَهم تَغلغُلًا فيما يَقرَأُ، وأدقَّهُم استخراجًا، وأَغزَرَهُم استنباطًا؛ لم تكن مُخطِئًا، وحينَ نقولُ: كان الشَّافعيُّ على رأسِ المئةِ الثَّانيةِ يدلُّ ذلك على أنه كان على رأسِ علمائِها سَعَةَ علمٍ، ونفاذَ رأيٍ، وقوةَ بصيرةٍ.

وهكذا يُقالُ في ابنِ سُرَيجٍ القاضي الَّذي قالوا عنه: لم يكن أحدٌ أعلمَ بفقهِ الشَّافعيِّ منه[(١)]، حتى إنه وُصِفَ بأنَّه الشَّافعيُّ الصَّغِيرُ[(٢)].

وهكذا كان أبو بكرٍ لسانَ الأمَّةِ، ولم يكن أحدٌ أعلمَ منه بمذهبِ أبي الحسنِ الأشعريِّ.

ولم يكن واحدٌ من هؤلاء فردًا في بابه إلا لأنه طلَبَ العلمَ بنفسٍ مُحبَّةٍ للعلمِ، ومُغتبِطةٍ به، ومُولَعةٍ به، ولازمت وانقطعت وتلقَّتِ العلمَ بهذا الحبِّ وهذا الوَلَعِ وهذه الغِبطةِ وهذا الانقطاعِ؛ أعني أنهم لم يكونوا شيئًا إلا لمَّا بذلوا وصبروا وثابروا وكدُّوا وجَهَدُوا؛ فسُقِيَت قلوبُهم بالعلمِ، ثمَّ سَقَت قلوبُهمُ العِلمَ.

وهكذا النفوسُ الحيَّةُ الصَّابرةُ؛ تأخذُ من العلمِ وتُعطيه؛ فتَربو بالعلمِ ويَربو بها العلمُ، وقد حدَّثونا عن هذه التَّجارِبِ، حدَّثونا عن الصبرِ والانقطاعِ وطُولِ التدبرِ في

---

(١) انظر: «صلة تاريخ الطبري» لعريب القرطبي: ١١/ ٧١.

(٢) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي: ٣/ ٢٢.

الَّذي يقرءون، حتى إنَّ أحدَ نُحاةِ الأندلسِ[١] كان يختمُ قراءةَ كتابِ سيبويه كلَّ خمسةَ عشَرَ يومًا، وحتى إن المُزنيَّ صاحبَ الشَّافعيِّ قرأَ رسالتَه خمسَ مِئةِ مرَّةٍ، وأصابَ في المرَّةِ الأخيرةِ ما لم يُصِبهُ في غيرِها[٢].

وهذا معناه أن تَكرارَ النظرِ في الكتابِ يُنبِتُ في النفسِ معرفةً جديدةً؛ لأنَّ طُولَ التَّدبُّرِ في الكتابِ يكشفُ بين سطورِه -وتحتَها- إشاراتٍ لم يكن لِيَكتشِفَها القارئُ إلا بطُولِ المراجعةِ وطُولِ التدبرِ، وقد يُثيرُ طُولُ التَّدبُّرِ في الكتابِ خواطرَ عند القارئِ ليست من الكتابِ، وإنما ما كانت لتكونَ في نفسِ القارئ إلا بهذا الكتابِ.

وهذا يَعني أن طُولَ ملازمةِ أهل العلمِ للكتابِ؛ إما أن يستخرجوا هم منه أفكارًا، أو يَستخرِجَ هو منهم أفكارًا،

---

(١) هو: أبو محمد عبد اللَّه بن محمد بن عيسى النَّحْوِيُّ، المعروف بابن الأَسلَمِيِّ، كما في «الصِّلة» لابن بَشْكُوال: ٢٥٣.

(٢) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي»: ١/ ٢٣٥، ٢٣٦ بإسناده إلى المُزَنِيِّ.

وكلُّ هذا مما تَزيدُ به المعرفةُ وتَربو، وليس تتجدَّدُ فقط، وبهذا ينتقلُ القولُ في التَّجديدِ إلى التَّجديدِ نفسِه.

وقد سَبَقَ أن ذَكَرنا ما ذَكَرَ كِرامُ علمائِنا مِن أنَّ علمَ الوحيِ يُنتِجُ عِلمًا، كما قالوا في الحديثِ الَّذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ من حديثِ أبي مُوسَى الأشعريِّ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**مَثَلُ ما بَعَثَني اللَّهُ به مِنَ الهُدى والعِلمِ كَمَثَلِ الغَيثِ الكثيرِ أَصابَ أَرضًا. . .**»[١].

ثم ذَكَرَ عليه الصلاةُ والسلامُ أن الأرضَ الطيبةَ الَّتي تلقَّت هذا الغيثَ -أَعني الوحيَ في الكتابِ والسُّنَّةِ- أمسكتِ الماءَ الَّذي هو علمُ الوحيِ، وأنبتَتِ الكلأَ والعُشبَ، وهذا علمٌ أخرجهُ علمُ الوحيِ من النفوسِ الطيبةِ.

وأقولُ مِثلَ ذلك في كلامِ العلماءِ المجتهدين الصَّادقين المُخلصِين المُنقطِعين لخدمةِ العلمِ، وخصوصًا منهم الَّذين أسَّسُوا العلومَ: كالأئمةِ الأربعةِ في الفقهِ، وكالخليلِ

(١) أخرَجه البخاريُّ (٧٩) ومسلمٌ (٢٢٨٢) من حديثِ أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه. وقد تقدَّم.

وسيبويهِ في النحوِ، والجاحظِ في علمِ الأدبِ، وعبدِ القاهرِ في البلاغةِ.

وتاريخُ العلومِ يؤكِّدُ أن الَّذين جاءوا بعد هؤلاءِ ومَن في طَبَقتِهمُ استخرجوا عِلمًا جليلًا مِن كلامِهم، وتاريخُ العلومِ زاخرٌ بصُوَرٍ حيَّةٍ من التَّجديدِ، وزاخرٌ بصُوَرٍ حيَّةٍ مِن إنتاجِ المعرفةِ، وكلُّ هذا في الكتبِ، وكلُّ هذا مجهولٌ؛ لأنَّنا نتكلَّمُ مِن غيرِ أن نقرأَ، ونتكلَّمُ في التَّجديدِ من غير أن نَدرُسَ بفقهٍ ووعيٍ ماذا فعل هؤلاء المجدِّدون.

قلتُ: إنك بطُولِ الملازمةِ للكتابِ قد تَنفُذُ أنت إلى معنًى مخبوءٍ فيه، وربما قرأه مَن هو أَنفَذُ نظرًا منك ولم يقع عليه، وقد يَنفُذُ الكتابُ إلى معنًى مخبوءٍ في نفسِكَ أنت أيُّها القارئُ؛ فيُثيرُه ويفتحُ لك به بابًا من العلمِ.

ثم إنك قد تَخرُجُ من الكتابِ بعلمٍ جليلٍ ليس فيه حرفٌ واحدٌ مِن هذا الكتابِ، وإنما شَغَلَكَ منه طريقةُ تفكيرِ المؤلِّفِ، وطريقةُ تَناوُلِه لمسائلِ عِلمِه، وطريقةُ تفتيشِه في البحثِ عنِ المعرفةِ؛ فتَخرُجُ أنت بهذه الطريقةِ، وتَنقُلُها إلى

علمٍ آخَرَ؛ فتَفتَحُ لك بابًا آخَرَ، وقد حَدَثَ هذا مع الجَرميِّ الَّذي قالَ: إنه كان يُفتي في الفقهِ مِن كتابِ سيبويهِ، فلم يَفهَمِ النَّاسُ كلامَه، وسألوا المبرِّدَ -وهو عالمٌ كما كان يُقالُ: هَمُّكَ مِن عالمٍ- فقال: إن كتابَ سيبويهِ يُعلِّمُ العقلَ، فانتفعَ الجَرميُّ بطريقةِ سيبويهِ في مُفاتَشةِ اللغةِ لاستخراجِ قوانينِها، وفاتَشَ الحديثَ لِيَستخرِجَ أحكامَه(١).

وهذا من أغربِ وجوهِ القراءةِ، فأنت لا تَقرَأُ الكتابَ لِتحصيلِ مادَّتِه العلميَّةِ، وإنما لتحصيلِ حركةِ عقلِ مصنِّفِه، وكأنَّكَ ترى في الكتابِ عِلمَينِ: عِلمًا هو العلمُ الَّذي نتعلَّمُه ونُعلِّمُه، وعِلمًا آخَرَ هو طريقةُ تفكيرِ المُصنِّفِ، وطريقةُ

---

(١) انظر: «طبقات النحويين واللغويين» لأبي بكر الزَّبيدي: ٧٥، وفيه: «أبو جعفر الطبري قال: سمعتُ الجَرميَّ يقولُ: أنا مذ ثلاثون أُفتِي النَّاس في الفقهِ من «كتاب سيبويه». قال: فحدَّثتُ به محمد بن يزيد -وهو ابن المبرِّد- على وجهِ التعجبِ والإنكارِ، فقال: أنا سمعتُ الجَرميَّ يقول هذا، وأومأَ بيدِه إلى أُذُنَيهِ، وذلك أن أبا عمر الجَرميَّ كان صاحبَ حديثٍ، فلمَّا عَلِمَ «كتاب سيبويه» تفقَّهَ في الحديثِ؛ إذ كان كتابُ سيبويه يُتعلَّمُ منه النظرُ والتفتيشُ».

نَظَرِه، وطريقةُ استخراجِه، وهذا العلمُ الثَّاني عِلمٌ لم يَنطِق به لسانُك ولا لسانُ المؤلِّفِ، وهو الَّذي يَسكُنُ عقلَك ويَهدِيك إلى أن تُنتِجَ عِلمًا؛ وهو العلمُ المسكوتُ عنه.

سيبويهِ فاتَشَ اللغةَ، ولم يُحدِّثنا عن هذه المُفاتَشةِ، وجاء الجَرميُّ وهو الَّذي يُعاني مُفاتَشةَ الحديثِ، فوقَعَ على مُفاتَشةِ سيبويهِ، وفاتَشَ الحديثَ مُفاتَشةَ سيبويهِ لِلُّغةِ، وليس هذا من التَّجديدِ، وإنما هو أرقى مِنَ التَّجديدِ؛ لأنه وسيلةٌ غريبةٌ في تواصُلِ العقولِ، وأخذِ بعضِها عن بعضٍ، ولا يجوزُ لنا أن نُغفِلَ هذه الجوانبَ؛ لأنها جميعًا خُطُواتِ إنتاجٍ وتجديدٍ.

قال أحدُ شيوخِ النحوِ[(١)]: «مات سيبويهِ وهو أعلمُ بالكتابِ منِّي، وأنا الآنَ أعلمُ بالكتابِ منه»، ولن يكونَ أعلمَ بالكتابِ مِن سيبويهِ الَّذي كتبَه بيدِه إلا إذا كان علمُ سيبويهِ قدِ اتَّسعَ عنده بما أثارَه في نفسِه مِن خواطرَ وأفكارٍ،

---

(١) هو: أبو الحسن سعيد الأخفش، كما في «المعارف» لابن قُتَيبة: ٥٤٦، و«طبقات النحويين واللغويين» لأبي بكر الزبيدي: ٦٧، بنحوه.

ومما لا يَعترِضُ عليه كبارُ أهلِ العلمِ أنه مِن حقِّكَ أن تَشرَحَ كلامَ صاحبِ الكلامِ ببيانِ المعاني الَّتي أرادها، والمعاني الَّتي لم يُرِدها، وهذا من مَعاني أنَّ الكتابَ يَستخرِجُ منك عِلمًا.

وقد ذكَرَ أبو العلاءِ أن ابنَ القارحِ لَقِيَ امرَأَ القيسِ وهو يَجُرُّ سلاسلَه وأغلالَه في الجحيمِ، فسألهُ عن أبياتٍ من شِعرِه اختلَفَ النَّاسُ في معناها، ولمَّا سَمِعَ امرُؤُ القَيسِ هذه الشروحَ المختلفةَ لشِعرِه أجازَها جميعًا[1]، وكأن أبا العلاءِ يقولُ لنا: ليس من حقِّ المؤلفِ أن يَرفُضَ ما يُثيرُه كلامُه في نفوسِنا مِن خواطرَ وأفكارٍ، المُهمُّ القراءةُ، والمُهمُّ التدبُّرُ وفتحُ القلبِ والعقلِ فتحًا لا حدودَ له لتلقِّي كلِّ الخواطرِ المُنبعِثةِ من النصوصِ.

وقد قدَّمَ المرحومُ محمود شاكر تَجرِبةً فريدةً في هذا البابِ، وذلك في قصيدتِه «**القَوس العَذراء**»، وهي قصيدةٌ تَربو على مئتَينِ وخمسين بيتًا، كلُّها مِن وحيِ أبياتٍ معدودةٍ

(١) انظر: «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري: ٣١٤.

للشَّمَّاخِ[١] في وصفِ القوسِ[٢]، وقد قدَّم المرحومُ محمود شاكر لهذه القصيدةِ مقدِّمةً هي أيضًا من وحيِ أبياتِ الشَّمَّاخِ، ومستحيلٌ أن يكونَ الشَّمَّاخُ قد أراد شيئًا مما ذكرَهُ محمود شاكر في هذه المقدِّمةِ؛ لأنَّه لم تُوجَد خاطرةٌ منها في زَمَنِ الشَّمَّاخِ[٣].

وهذا مِن أهمِّ طُرُقِ التَّجديدِ؛ لأني لا أَعرِفُ جديدًا يَهتدي إليه أحدٌ إلا بطُولِ المعاناةِ، وطُولِ المراجعةِ، وطُولِ التَّدبُّرِ، وطُولِ إلطافِ النظرِ، وطُولِ مزاولةِ ومرافقةِ

---

(١) هو: الشَّمَّاخ بن ضِرارٍ الذُّبْيَاني الغَطَفَاني، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام (ت. بعد ٣٠هـ). انظر: «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني: ٩/ ١٨٤، و«الشعور بالعور» للصفدي: ٢٥٣، و«الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر: ٥/ ١٣٢.

(٢) وصفوه بأنه أوصفُ الناسِ للقوسِ والحميرِ، وأرجزُ الناسِ على البديهةِ. انظر: «الأغاني» لأبي الفرج: ٩/ ١٨٧، و«الوافي بالوَفَيَات» للصَّفَدِيّ: ١٦/ ١٠٤، و«الإصابة» لابن حجر: ٥/ ١٣٦.
وانظر من قصائده في وصف «القوس»: «ديوانه»: ١٧٣-٢٠١.

(٣) انظر كتابنا: «القوس العذراء وقراءة التراث».

الَّذين استخرجوا، والَّذين جدَّدوا، وبهذا وبأضعافِه وببَذلِ الحياةِ كلِّها فيه تتكوَّنُ عقليَّةُ المجدِّدِ.

ولا قيمةَ لِما يَكتبُه المتكلِّمون في التَّجديدِ وهم مُتمدِّدون على أَرائِكِهم، لقد أَفسَدْنا كلَّ شيءٍ لمَّا تكلَّمنا جميعًا في كلِّ شيءٍ، ولو سكتَ مَن لا يَعلَمُ لاستراحَ النَّاسُ.

وبهذا وبأضعافِه وببذلِ الحياةِ كلِّها أَنتَجَ المعرفةَ مَن أَنتَجَها، وأضافَ إليها مَن أضافَ، وجدَّدَها من جدَّدَها، وليس بغيرِ هذا يَحدُثُ في العلمِ أيُّ شيءٍ؛ لأنَّ «العلمَ لا يُعطيك بعضَه حتى تُؤتِيَه كُلَّكَ»؛ يَعني تبذُلُ حياتَك كلَّها، وجُهدَكَ كلَّه، وكَدَّكَ كلَّه، ثم هو بعدَ ذلك كلِّه يُعطيك بعضَه، وبعضُه قليلٌ منه، ولكنَّ القليلَ مِن العلمِ لا يُقالُ له: قليلٌ، وقد قالوا: إن القدرةَ على إحياءِ ما اندَرَسَ وبعثِ الحيويَّةِ والجِدَّةِ في الفكرةِ الشَّائعةِ المُبتذَلةِ أدلُّ على الاقتدارِ والتفوقِ من القدرةِ على الاختراعِ.

ثم إن النهوضَ والتَّجديدَ لم يكن في النهايةِ إلا تجديدَ عقولٍ وتجديدَ طاقاتٍ نفسيَّةٍ وفكريَّةٍ، وكلُّ الَّذي يَحدُثُ في

العلومِ والأفكارِ بتجدُّدِها إنما هو مِن تجديدِ العقولِ، ولا يأتي العقلُ الهاجعُ إلا بالفكرِ الهاجعِ، والعقولُ إذا جَدَّت واجتهدت جدَّدت، واستطاعت أن تجعَلَ من الفكرةِ السَّاكنةِ الهاجعةِ فكرةً حيَّةً متوتِّرةً.

ونماذجُ ذلك كلِّه بين أيدينا، واقرأ إن شئتَ ما كَتَبَهُ الرَّافعيُّ في الإعجازِ[1]، وسيَبدُو لك أوَّلَ وَهلةٍ أنك أمامَ فكرٍ جديدٍ خالصٍ، فإذا تدبرتَ وألطفتَ النظرَ وأكثرتَ المراجعةَ رأيتَ الرَّافعيَّ يَسكُنُ في قلبِه وعقلِه كلامُ علماءِ الإعجازِ قَبلَه، وإن كان يُهاجِمُهم، وخصوصًا كتابَ أبي بكرِ بنِ الطَّيِّبِ[2]، ونرى الرَّافعيَّ -كما قالوا- يأخذُ خيوطًا قديمةً، ويَنسُجُ منها نسجًا جديدًا، فترى عقلَه في جِدَّتِه ونسجه، وترى تراثَه وتاريخَه في خيوطِه وفي عُمقِ ثقافتِه.

---

(١) ككتابه الماتع «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» الذي وصفه الزعيمُ الراحلُ سعد باشا زغلول بأنَّه «تنزيل من تنزيل، أو قبس من نور الذِّكْر الحكيم».

(٢) هو الإمام الباقِلَّاني صاحبُ كتابَي: «إعجاز القرآن»، و«الانتصار للقرآن».

وقُلْ مِثلَ ذلك في الشيخِ محمد عبد اللَّه دراز[١]، الَّذي كان يأخذُ من الرَّافعيِّ سرًّا وجهرًا، ولكنَّ عُمقَ فكرِ دراز كان يأبى إلا أن يُلقِيَ سَمتَهُ ورداءَه على كلِّ ما جرى به قَلَمُه، وظاهرٌ جدًّا أن هذا ما نحتاجُه، وأنَّ حاجتَنا إليه أكثرُ مِن حاجتِنا إلى الحديثِ عن التَّجديدِ، فهيَّا بنا ننتقلُ من الحديثِ عنِ التَّجديدِ إلى التَّجديدِ، وهيَّا بنا ننتقلُ مِنَ الحديثِ عن الإصلاحِ إلى الإصلاحِ، وهيَّا بنا ننتقلُ مِن الحديثِ عن محاربةِ الفسادِ إلى المواجهةِ الحاسمةِ مع الفسادِ ومُحاربتِه.

وإنَّما خُلِقنا لِنَعيشَ على الأرضِ ونَعمُرَها، وليس لِأَن نَعمُرَ الأوراقَ والصُّحُفَ والكُتُبَ، وكم مِن العلماءِ جدَّدوا ولم تَجرِ كلمةُ التَّجديدِ على أَلسِنَتِهم! وكم مِن غيرِهم صدَّعونا عنِ الكلامِ في التَّجديدِ وليس في كلامِهم حرفٌ واحدٌ يُمكِنُ أن يكونَ جديدًا!

---

(١) صاحب كتاب «النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن الكريم»، وغيره من المؤلَّفات النافعة.

ولم يَلتفِت قلمٌ واحدٌ إلى حالِ التعليمِ ووصولِه إلى ما وصَلَ إليه، وإلى أحوالِ المدارسِ، حتى المدارسِ الَّتي تعلَّمُوا فيها، وكيف انتَهَت إلى هذه الصورةِ، وكيف يستقيمُ في عقلٍ أن نتحدَّثَ عن التَّجديدِ ونُغفِلُ هذه المأساةَ التَّاريخيَّةَ لوصولِ التعليمِ إلى ما وصَلَ إليه، وكثيرٌ مِن الَّذين يتكلَّمون في تجديدِ الخطابِ الدينيِّ يُوجِّهون أكثرَ كلامِهم إلى الأزهرِ الشريفِ ونَقدِه، وكأنَّ كلَّ ما في البلادِ على أحسنِ وجهٍ إلا هذا الشريفَ العريقَ الَّذي أصابتهُ الشيخوخةُ!

وأخوفُ ما أخافُه أن يكونَ حديثُنا ليس لعلاجِ أَوصابِنا، وإنما لِقَدحِ بعضِنا في بعضٍ، وَلْنَذهَب إلى المقالةِ الرَّابعةِ لِنَرى التَّجديدَ في صورةِ الواقعِ، وكيف كان مِن رجالِه المُخلِصِينَ الَّذين لم يكُن همُّهم أن يَتَّهِمَ بعضُهم بعضًا، وإنما همُّهمُ الإصلاحُ ما استطاعوا.

هذا واللَّهُ أعلمُ.

❃ ❃ ❃

مِن مَدَاخِلِ التَّجْدِيدِ

(٤)

أشرتُ إلى أن طُولَ التدبُّرِ والمراجعةِ في كلامِ العلماءِ والمتفوِّقين أو المؤسِّسين للعلومِ يَهدي إلى خبيئةٍ مخبوءةٍ في مَطاوي كلامِهم؛ ولهذا قالوا: «في الزَّوايا خَبايا، وفي الرِّجالِ بقايا»[١]، ولعلَّهم أرادُوا بقايا الرِّجالِ الَّذين يُخرِجون هذه الخَبايا الَّتي في الزَّوايا.

وذكرتُ أن النَّاظرَ الصَّادقَ إذا لم يَقَع على خبيئةٍ في باطنِ لغةِ العالِمِ أثارَ طُولُ تدبُّرِه في نفسِه خبيئةً، يعني: إن طُولَ تدبُّرِ الصَّادقِ في كلامِ الصَّادقين إما أن يَهدِيَك إلى فكرةٍ في كلامِ الصَّادقين، أو يستخرجَ كلامُ الصَّادقين مِن عقلِكَ فكرةً، ولا يُمكِنُ أن يَخرُجَ العقلُ الصَّادقُ من طُولِ

---

(١) من الأمثلة المشهورة على الألسنة؛ انظر: «الكُلِّيَّات» للكفوي: ٢٣٨، و«صبح الأعشى» للقلقشندي: ١/ ٣٥١.

التدبُّرِ في عقولِ العلماءِ الصَّادقين صِفرَ اليدَينِ، وهذا مِن الأمرِ الإلهيِّ ومِن بَرَكاتِ العِلمِ.

والصدقُ في طلبِ العلمِ من أقربِ القُرُباتِ؛ ولهذا تجدُ كُتُبًا كثيرةً تُعالِجُ موضوعاتٍ واحدةً، ولأنها كُتِبَت بأقلامٍ صادقةٍ تجدُ لكلِّ كتابٍ منها مَذاقًا، ولا يُمكِنُ أن يَسُدَّ كتابٌ منها مكانَ كتابٍ، فلا يُمكِنُ أن يُستَغنى بـ: «**الإيضاحِ**»[1] عن «**المُطوَّل**»[2]، بل ولا يُستَغنى بـ: «**التَّلخيص**»[3] عن «**الإيضاحِ**»، مع أنهما لمؤلِّفٍ واحدٍ.

وإذا رأيتَ كُتُبًا يُستَغنى ببعضِها عن بعضٍ فاعلم أنها كُتِبَت بأقلامٍ لم تتعوَّد على التدبُّرِ والمراجعةِ؛ لأنَّ المتدبِّرَ يتدبَّرُ اللغةَ حتى يَصِلَ إلى الفكرةِ، فإذا وصَلَ إلى الفكرةِ بدَأَ دَورَةً ثانيةً مِن التدبُّرِ، ولكنه في الفكرةِ نفسِها، وهذا مُهِمٌّ؛ لأنه لو كانتِ الفكرةُ فكرةَ عالِمٍ من صُرَحاءِ أهلِ

---

(١) «الإيضاح في علوم البلاغة» للخطيب القزويني.

(٢) «المُطوَّل شرح تلخيص مفتاح العلوم» للسعد التفتازاني.

(٣) «تلخيص مفتاح العلوم» للخطيب القزويني.

العِلمِ، وكان المتدبِّرُ مِنَ المؤهَّلِينَ فإنه سيظلُّ يُراوِدُ الفكرةَ حتى يَستخرِجَ مِن لَحمِها ودَمِها فكرةً جديدةً.

والأفكارُ أكثرُ وِلادةً مِن اللغةِ، وأقدرُ على إثارةِ الأفكارِ في داخلِ النفسِ الإنسانيَّةِ، حتى إنك لَتَجِدُ بعضَ الفنونِ البلاغيَّةِ مؤسَّسةً على استدعاءِ فكرةٍ لفكرةٍ؛ مِثلُ شِبهِ كمالِ الاتصالِ، الَّذي هو أن تُثيرَ الفكرةُ الَّتي تَسمَعُها في نفسِك فكرةً تتشوَّفُ نفسُك إليها، وكأنها تُناديها مِن غيبِ الفضاءِ، فتأتيَ الجملةُ الثَّانيةُ لتُجيبَ عن هذه الفكرةِ.

وهكذا تجدُ الأفكارَ وَلُودةً، وكأنَّ كلَّ فكرةٍ في رَحِمِها فكرةٌ، وهذا هو معنى قولِ الشَّافعيِّ في أنَّنا نُحصِّلُ كلامَ رسولِ اللَّهِ ﷺ نصًّا واستنباطًا، ولا معنى للاستنباطِ إلا أن تَستخرِجَ مِن الأفكارِ أفكارًا، وهذا مِن أهمِّ معاني التَّجديدِ.

ثم لاحظ أنَّ الاستنباطَ لا بدَّ أن يُسبَقَ بالنصِّ الَّذي هو العلمُ والمعرفةُ، والعقلُ الخالي مِن العلمِ والمعرفةِ يُمكِنُ أن يَستنبِطَ وَهمًا من وَهمٍ.

وأريدُ أن يكونَ هذا المقالُ الَّذي أختمُ به الحديثَ عن

التَّجديدِ صورةً عمليَّةً لِما كان يقومُ به علماؤنا المجدِّدون للعلومِ والمؤسِّسون لها؛ لأنَّ التَّجديدَ والتأسيسَ أَخَوانِ لأبٍ وأمٍّ، ومَن يَجهَلْ كيف تأسَّستِ المعرفةُ لا يَعرِفْ كيف يجدِّدُها، والأمَّةُ متَّفقةٌ على أن الشَّافعيَّ هو المجدِّدُ على رأسِ المئةِ الثَّانيةِ، وكلُّ تراثِ الشَّافعيِّ تأسيسٌ، وسأقفُ عند بعضِ المسائلِ الَّتي كانت بمثابةِ عَتَبةٍ مِن عَتَباتِ العِلمِ فتحَ العالِمُ بابَها فوَضَعَ بهذا الفتحِ أصلًا مِن أصولِ العِلمِ.

والكتابُ الَّذي سأقفُ عند بعضِ مواطنِه هو كتابُ «دلائل الإعجاز»[١]؛ لأنك لا تُدرِكُ جوهرَ فكرةِ التأسيسِ أوِ التَّجديدِ في كتابٍ إلا إذا طالت صُحبتُك له، وحصَّلتَ مادَّتَهُ، وحصَّلتَ طريقةَ تفكيرِه، وكيف أُسِّسَ المجهولُ على المعلومِ، وكيف كان يَخطُو في المجهولِ، وبأيِّ نجمٍ في هذا المجهولِ كان يهتدي، ولا أعرفُ للتجديدِ معنًى إلَّا مِن هذا ومِثلِه.

ولا أشكُّ في أن تكوينَ طالبِ العلمِ في أشدِّ الحاجةِ

---

(١) للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت. ٤٧١هـ).

إلى أن يَعرِفَ كيف أسَّسَ الفقهاءُ الفقهَ، وكيف أسَّسَ النحاةُ النحوَ، ولا يَعرِفُ الكتابةَ في هذا إلا الشيوخُ الَّذين قاموا وقَعَدُوا بتراثِ الفقهاءِ، وتراثِ النحاةِ، ولم يكُن لهم شاغلٌ في الدنيا يَشغَلُهم عن ذلك؛ لأنَّ هذا لا يَتبيَّنُ إلا بعد لأْيٍ ولَأْواءَ، فإذا تبيَّنَ كان بيانُه ظاهرًا جدًّا، حتى إنك لَتعجَبُ كيف غاب عنك مع هذا الظهورِ.

ودَعْكَ ممَّن لَيسُوا كذلك؛ لأنه لا يجوزُ أن يتحدَّثَ في العِلمِ إلَّا مَن قامَ وقَعَدَ به، وهمُ الذَّاكرون للعِلمِ قيامًا وقعودًا وعلى جُنوبِهم، ولا تُنكِر عليَّ هذا؛ لأنَّ مجالسَ العِلمِ هي مجالسُ الذِّكرِ، والعلماءُ همُ الذَّاكرون الَّذين لا يَشقى جليسُهم، لم أَعرِف واحدًا مِن عُلمائنا إلَّا وكلامُه في العِلمِ عبادةٌ، وقراءتُه عبادةٌ، وتأليفُه للكُتُبِ عبادةٌ، وقد سمعتُ دروسَ بقيَّةٍ مِن هؤلاءِ.

ومِن المُضحِكاتِ المُؤسِفاتِ أننا نُطالِبُ طلَّابَنا في الدرَجاتِ العلميَّةِ أن يأتوا بجديدٍ، مع أننا لم نَقرَأ عليهم صفحةً واحدةً يتعلَّمون منها كيف جاءَ بالجديدِ مَن جاءَ به!

ومعَ أنَّنا لم نُقدِّم لهم جديدًا منَّا في بحثٍ ولا في درسٍ ولا في كتابٍ، وإنَّما هو كلامٌ في كلامٍ، كهذا الَّذي نحنُ فيه.

وأوَّلُ حديثٍ لعبدِ القاهرِ كان وصفًا لكلِّ تراثِ مَن سَبَقُوه مِن الَّذين تكلَّموا في البلاغةِ، وأنَّه كان كالرمزِ والإيماءِ والإشارةِ في خفاءٍ، وظلَّ الشيخُ يَشكو من غموضِ هذه المادةِ العلميَّةِ إلى أنِ انتهى مِن تأليفِ الكتابِ، وهو كلَّما شكا ذَكَرَ بابًا مِن أبوابِ العلمِ أَخرَجَهُ بجُهدِ عقلِه مِن ضبابِ هذا الغموضِ. ثم استصفى من مُعجَمِ الغموضِ هذا ثمانيةَ ألفاظٍ رآها أكثرَ دَوَرانًا على أَلسنتِهم.

وأذكرُ أنني أَعرضُ بعضَ خُطُواتٍ سَلَكَها عالِمٌ في طريقِ التَّجديدِ؛ لأنَّ هذا هو المطلوبُ، والكلامُ عن التَّجديدِ إذا لم ينتهِ بنا إلى التَّجديدِ ذاتِه كان ضياعًا للوقتِ.

ولم أقرأ لأحدٍ ممن تكلَّموا في التَّجديدِ وصفًا عمليًّا لخُطُواتِ التَّجديدِ عند من جدَّدوا؛ لأني مُدرِكٌ أن هذا صعبٌ جدًّا، والفرقُ بين التَّجديدِ والكلامِ عن التَّجديدِ كالفرقِ بين الكلامِ عن الإصلاحِ والإصلاحِ، والفرقُ بين

الكلامِ عن الصَّالحين وأن تكونَ واحدًا منهم هو فرقٌ بعيدٌ جدًّا.

وأعودُ إلى ما أريدُه وأقولُ: وَجَدَ عبدُ القاهرِ ألفاظًا ثمانيةً أكثرها دورانًا؛ وهي النَّظمُ والترتيبُ والتأليفُ والتركيبُ والصياغةُ والتصويرُ والنسجُ والتحبيرُ، وقدِ اصطفى منها كلمةَ النظمِ؛ لأنها كانت عناوينَ كُتُبٍ مِن يومِ أن أهاجَ النَّظَّامُ عقولَ العلماءِ بالقولِ بأن القرآنَ مُعجِزٌ بالصَّرفةِ وليس بالبلاغةِ، ولولا أنَّ اللَّهَ صَرَفَ قريشًا عن أن يأتوا بمِثلِه لجاءوا بمِثلِه.

وقد راجعتُ هذه الألفاظَ الثمانيةَ الَّتي كان عليها مَدارُ كلامِ علماءِ البلاغةِ، فوجدتُها مذكورةً في الشعرِ الجاهليِّ في أوصافِ الشعراءِ لأشعارِهم، وسرَّني ذلك جدًّا؛ لأنه يعودُ بجذورِ هذا العلمِ إلى أهلِ البلاغةِ، وهمُ العربُ والأعرابُ، وليس يونانيًّا ولا مالطيًّا، كما يقولُ مَن يقولُ.

والخُطوةُ الثَّانيةُ هي: أن الشيخَ لاحَظَ أن هذه الألفاظَ مجازٌ في وصفِ البيانِ، فرجَعَ بها إلى معانيها الحقيقيَّةِ؛

ليُبيِّنَ المرادَ بهذا المجازِ، فوجَدَ النظمَ مَثَلًا حقيقةً في وصفِ نظمِ حبَّاتِ العِقدِ في العِقدِ، وأنَّه ليس ضمًّا للحبَّاتِ كما اتَّفَقَ، وإنما هو ضمٌّ يُلاحَظُ فيه شكلُ الحبَّةِ ولونُها وحجمُها، وأنَّه في الكلامِ ضمُّ كلمةٍ إلى كلمةٍ ليس كما اتَّفَقَ، وإنما يُلاحَظُ فيه معنى الكلمةِ وحالُ الكلمةِ وموافقةُ ذلك لغرضٍ ومقصودِ الكلامِ.

وبدأ يَظهَرُ له معنى النَّظمِ، وأنَّه ضمُّ كلمةٍ إلى كلمةٍ ضمًّا تُراعَى فيه معاني النحوِ على وَفقِ الأغراضِ والمقاصدِ، وكان النَّاسُ قبله يستعملون كلمةَ النظمِ، ويُعظِّمون شأنَه، ويجعلونه العمودَ الَّذي عليه المَدارُ، ولكنهم لم يَشرَحوه ولم يُبيِّنوا ما هو، وما المقصودُ به!

وها هو الآنَ يَفعَلُ، وَلنَتذكَّر أنني أَصِفُ خُطُواتِ واحدٍ من الَّذين أسَّسوا وجدَّدوا، ولم أَشرَح مسائلَ العلمِ، وقبل أن أَدَعَ هذه الخُطوةَ أُشيرُ إلى أن الشيخَ وضَعَ تعريفًا بالغَ الدقةِ للنظمِ الَّذي هو جذرُ الدرسِ البلاغيِّ، وأنَّ مَن جاءوا بعدَه لمَّا عرَّفوا البلاغةَ بأنَّها: «مُطابقةُ الكلامِ لمُقتضى

الحالِ»[١]؛ ذكروا أن هذا التعريفَ هو مرادُ عبد القاهرِ بالنَّظمِ، وأنَّه لم يستطع أحدٌ أن يَخدِشَ منه كلمةً، وهو مِن أكرمِ ما يَهدي اللَّهُ به أهلَ العلمِ الَّذين صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه.

الخُطوةُ الَّتي بدَأَ يَنكشِفُ فيها وبها ملامحُ مفهومِ النَّظمِ هي العَودُ بالكلمةِ إلى معناها الحقيقيِّ، وتأمُّلُ وتَدبُّرُ معناها المجازيِّ في الكلامِ، وصلةُ هذا المعنى بالمعنى الحقيقيِّ؛ أَعني: هي خُطُواتُ تَدبُّرٍ وتَأمُّلٍ ومُراجعةٍ.

وعليَّ أن أنتقلَ الآنَ لوصفِ الخُطُواتِ في الأبوابِ الَّتي لم يَستخرجها أحدٌ قَبلَه، وهي أبوابُ علمِ المعاني؛ لأنَّ كتابَ «**دلائل الإعجاز**» سُمِّيَت مباحثُه -بعدَ الشيخِ- أبوابَ علمِ المعاني، ووُضِعَ له عُنوانُ علمِ المعاني بدَلَ دلائلِ الإعجازِ، وكلمةُ عِلمِ المَعاني هي مَعاني النَّحوِ.

ومن المُفيدِ أن أقولَ: إن الشيخَ كان يَعلَمُ ما يُريدُه بمَعاني النحوِ عِلمًا ظاهرًا لا يَلتبِسُ، وهو ما عبَّرَ عنه مَن

---

(١) انظر: «الإيضاح» للخطيب القزويني: ١/ ٤١-٤٤.

جاءوا بعدَه بقولِهم: «أحوالُ اللفظِ العربيِّ الَّتي بها يُطابِقُ مقتضى الحالِ»[1]، وهي غيرُ علمِ النحوِ، يَعلَمُ ذلك مَن يَعلَمُه، ويُنكِرُه مَن يُنكِرُه.

ولزيادةِ الإيضاحِ أقولُ: إن معانيَ النحوِ عند عبدِ القاهرِ وأحوالَ اللفظِ العربيِّ عند المتأخِّرين الَّتي بها يُطابِقُ مقتضى الحالِ هي معاني التنكيرِ، ومَعاني التعريفِ، ومَعاني التقديمِ، والحذفِ، وفروقِ الخبرِ، والفرقُ بين إن وإذا، والفرقُ بين مجيءِ الواوِ وعدم مجيئِها، ومعاني إنَّما، والنفيُ والاستثناءُ والاستفهامُ... إلى آخِرِه.

ولمَّا فَرَغَ الشيخُ مِن تعريفِ النظمِ الَّذي هو تَوَخِّي معاني النحوِ بدأَ يَدرُسُ أبوابَ معاني النحوِ، وأوَّلُها التقديمُ، ولم يُدرَس في العربيَّةِ مِن الجهةِ الَّتي دَرَسَهُ منها عبدُ القاهرِ، وقد شَرَحَ لنا خُطُواتِه في استخراجِ علمِ معاني التقديمِ، وذلك مِن خلالِ المقدِّمةِ الَّتي قدَّم بها للبابِ، قال[2]:

---

(١) انظر: «الإيضاح» للخطيب القزويني: ١/ ٥٢.

(٢) في «دلائل الإعجاز»: ١٠٦.

«وهو بابٌ كثيرُ الفوائدِ، جَمُّ المَحاسِنِ، واسعُ التصرُّفِ، بعيدُ الغايةِ. . لا تزالُ ترى كلامًا يَروقُكَ مَسمَعُهُ، ويَلطُفُ لديك مَوقِعُه، ثمَّ تَنظُرُ فتَجِدُ سببَ أن رَاقَكَ ولَطُفَ عندك أن قُدِّمَ فيه شيءٌ، وحُوِّلَ اللفظُ عن مكانٍ إلى مكانٍ».

وهذا واضحٌ في أنه بدَأَ في البابِ بعدَما استقصى، وتتبَّعَ وتصفَّحَ شواهدَ كثيرةً فيها لفظٌ حُوِّلَ عن مكانِه، ثم نَظَرَ وألطَفَ النظرَ وأكثرَ التدبُّرَ؛ لِيَجِدَ الَّذي راقَ مَسمَعُهُ ولَطُفَ موقعُه، ثم نَظَرَ مرَّةً ثانيةً؛ ليُبيِّنَ لماذا كان تقديمُ هذا اللفظِ خصوصًا سببَ أن راقَ هذا الشعرُ وحَسُنَ، والمسألةُ أن التقديمَ في كلِّ موقعٍ له مَعنًى، وكذلك التنكيرُ والتعريفُ.

هذه أحوالُ اللفظِ الَّتي وُضِعَت لِمَعانٍ لا ريبَ فيها، ولكنَّ المعنى الَّذي يَلطُفُ ويَرُوقُ ويَرُوعُ يكونُ في أقلَّ مِن القليلِ منها، ومَرجِعُ هذا الَّذي يَرُوعُ ويَرُوقُ ويَلطُفُ أن يجدَ المتكلِّمُ في نفسِه معنًى حيًّا، ثم يختارُ له ما يُناسِبُه من أحوالِ اللفظِ، ويُصيبُ في هذا الاختيارِ، وهذا الَّذي يجدُه المتكلمُ في نفسِه هو أصلُ البلاغةِ، فإذا لم يَجِد شيئًا فلا اختيارَ ولا إصابةَ.

قلتُ: ما أَيسَرَ أن يتكلَّمَ المُتكِّئُ على أريكتِه على التقديمِ والتأخيرِ، وما أشقَّ وأغمضَ البحثَ في خُطُواتِ التَّقديمِ؛ لأنَّ هذا لا بدَّ أن يَدخُلَ بنا في دقائقِ وغوامضِ المعرفةِ، وليس هذا فحَسبُ، وإنما دقائقُ وغوامضُ المعرفةِ حالَ وِلادتِها واستخراجِها مِن غَيبِ المجهولِ.

والخُطوةُ الثَّانيةُ في بابِ التقديمِ هي أيضًا استقصاءُ وتصفُّحُ وتتبُّعُ ما قاله العلماءُ في أسرارِ التقديمِ، ولم يجد في هذا إلا كلمةَ سيبويهِ[1]: «إنَّهم يُقدِّمون الَّذي بيانُه أهمُّ، وهم بشأنِه أَعنى»، ولم يَزد من جاءوا بعد سيبويهِ على شرح هذه الجملةِ.. وضربِ مِثالٍ لها.

ولاحِظِ التَّتبُّعَ والاستقصاءَ، يقولُ: إنه ليسَ في تُراثِ العربيَّةِ إلا جملةُ سيبويهِ، وإلى الآنَ لم يَستدرِك عليه أحدٌ بكلمةٍ واحدةٍ زائدةٍ عن جملةِ سيبويهِ، ثم وَقَفَ بين أمرَينِ: أمرٌ هو فَيضُ التقديمِ في الشعرِ والبيانِ، وأنَّه واسعُ التصرُّفِ كما قدَّمنا، وأمرٌ هو كلامُ العلماءِ في هذه الخصوصيَّةِ الأسلوبيَّةِ، وهو ضيِّقٌ جدًّا.

---

(١) في «الكتاب»: ١/ ١١.

وهذا يَعني أنَّ فجوةً متَّسِعةً بين الاستعمالِ وبين التنظيرِ العلميِّ، ثم مضى يُحاورُ كلمةَ سيبويهِ، وكانت له كلماتٌ في مِثلِ هذا الموقفِ تَفتَحُ له بابَ العِلمِ، ولا أشكُّ في أنها مِن هدى اللَّهِ، وقد علَّمَنا شيوخُنا رَحِمَهمُ اللَّهُ أن لله عَطايا يَمنَحُها العبدَ إذا أَفرَغَ كلَّ مجهودِه وهو صادقٌ.

قال الشيخُ[(١)]: «إن قولَ سيبويهِ: «يُقدِّمون الَّذي بيانُه أهمُّ» قولٌ جيِّدٌ، ولكن يجبُ أن يُقالَ في كلِّ لفظٍ قُدِّمَ: لماذا كان تقديمُه أهمَّ؟ ولماذا كان المتكلمُ بشأنه أَعنى؟»‌.

وفتَحَت هذه الكلمةُ بابًا مِن العلمِ لا يُقادَرُ قَدرُه، وأصبحنا أمامَ موضوعاتٍ للدراسةِ تُؤسَّسُ على مَواطنِ التقديمِ في شعرِ كلِّ شاعرٍ، وكتابةِ كلِّ كاتبٍ، وأمامَ صُوَرٍ مِن التقديمِ لا حصرَ لها، وأمامَ غُموضٍ، ويجبُ أن نَهتدِيَ فيه إلى التقديمِ الَّذي يَلطُفُ موقعُه ويَرُوقُ مَسمَعُه، وهكذا، وهذا ما أَرَدتُه حينَ قُلتُ: إنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى يُجري على أَلسِنةِ أهلِ الحقِّ وأهلِ الصِّدقِ من خُدَّامِ عِلمِ هذه

---

(١) عبد القاهر الجرجاني في «دلائل الإعجاز»: ١٠٧-١٠٨، بمعناه.

الأمَّةِ كَلِماتٍ تَفتَحُ لهم بابًا مِن العِلمِ، وقد رأيتُ ذلك في تُراثِ عبد القاهرِ ظاهرًا، ومنه هذه الكلمةُ.

قلتُ: إنَّ هؤلاء الكرامَ كانوا يَشرَحون لنا خُطُواتِهم في تأسيسِ المعرفةِ وفي تجديدِها، وكأنهم كانوا يَقصِدُون إلى أن يُعلِّمُونا العلمَ، ويُعلِّمونا أيضًا كيفَ نَصنَعُ العلمَ، وكيف نُجدِّدُه.

وأقولُ: إنَّ شَرحَهم هذا ليس شرحًا مباشرًا، وإنما هو مُتضمَّنٌ في كلامِهم، والقارئُ الَّذي يريدُ أن ينتفعَ بكلِّ ما يُمكِنُ أن يُنتفَعَ به مِن الكتابِ الَّذي يَقرَؤُه هو الَّذي يُدرِكُ هذا، أما الَّذي همُّه المحصولُ العلميُّ فقط فهو بمَعزِلٍ عن هذا، فإذا قرأتَ كتابَ «الرِّسالةِ» للشافعيِّ وهمُّك أن تُحصِّلَ مادَّتَها العلميَّةَ فحَسبُكَ همُّك هذا، وهو همٌّ جيِّدٌ، وقد تَقرَؤُها ثانيةً لِتَعرِفَ كيف بناها الشَّافعيُّ، وما هي خُطُواتُه في تأسيسِ مادَّتِها العلميَّةِ، وهذا همٌّ آخَرُ ومجهودٌ آخَرُ، وإذا دخلتَ مِن هذه الأبوابِ تكونُ قد دخلتَ مِن مَداخِلِ العلماءِ المؤسِّسين والعلماءِ المجدِّدينَ.

قلتُ: إن الشيخَ عبدَ القاهرِ يُعلِّمُنا العلمَ بلفظِه الصريحِ، ويُعلِّمُنا كيف نَصنَعُ العلمَ بخُطُواتِه في كتابِه، وقد حدَثَ أمرٌ جَعَلَه يَقِفُ لِيَشرَحَ لنا كيف نَستخرِجُ عِلمًا صريحًا باللفظِ الواضحِ البيِّنِ، وذلك في الَّذي رواهُ ابنُ الأنباريِّ قال: «رَكِبَ الكنديُّ المتفلسفُ إلى أبي العباسِ وقال له: إني لأجِدُ في كلامِ العربِ حَشوًا؛ فقال له أبو العبَّاسِ: في أيِّ موضعٍ وجدتَ ذلك؟ فقال: أجدُ العربَ يقولون: عبدُ اللَّهِ قائمٌ، ثم يقولون: إنَّ عبدَ اللَّهِ قائمٌ، ثم يقولون: إنَّ عبدَ اللَّهِ لقائمٌ؛ فالألفاظُ متكرِّرةٌ والمعنى واحدٌ، فقال أبو العبَّاسِ: بل المعاني مختلفةٌ لاختلافِ الألفاظِ؛ فقولُهم: عبدُ اللَّهِ قائمٌ، إخبارٌ عن قيامِه، وقولُهم: إنَّ عبدَ اللَّهِ قائمٌ، جوابٌ عن سؤالِ سائلٍ، وقولُهم: إنَّ عبدَ اللَّهِ لقائمٌ جوابٌ عن إنكارِ مُنكِرٍ، فقد تكرَّرتِ الألفاظُ لِتَكرُّرِ المعاني، قال: فما أحارَ المُتفلسِفُ جوابًا». انتهى الخبرُ[1].

وقبل أن أَذكُرَ تعليقَ الشيخِ أُنبِّهُ إلى أن ما قاله أبو العبَّاسِ هو الَّذي جعله المتأخِّرون أَضرُبَ الخبرِ، وقد عقَّبَ

---

(١) أورده الإمام عبد القاهر الجرجاني في «دلائل الإعجاز»: ٣١٥.

الشيخُ على هذا بقولِه[١]: «واعلم أنَّ هاهنا دقائقَ لو أنَّ الكنديَّ استقرى وتصفَّحَ وتَتبَّعَ مواقعَ «إن» ثمَّ ألطَفَ النظرَ وأكثرَ التدبُّرَ لَعَلِمَ علمَ ضرورةٍ أن ليسَ سواءً دخولُها وأن لا تَدخُلَ».

وهذه الكلماتُ المُوجَزةُ الواضحةُ تَشرَحُ لنا كيف نستخرجُ المعانيَ الخفيَّةَ الَّتي بينَ الفُروقِ والوجوهِ، وأيضًا كيف نَستخرِجُ أصولَ بلاغةِ الكلامِ، وأنَّ سبيلَ ذلك سبيلٌ واحدٌ؛ هو استقراءُ الأساليبِ، وتَصفُّحُ الكلامِ وتَتبُّعُه، وهذا مما يَنالُه كلُّ مَن يَرُومُه، ويحتاجُ فقط إلى الصبرِ والمتابعةِ، وهذه هي الخطوة الأُولى في التَّجديدِ.

والخُطوةُ الثَّانيةُ -وهي الخُطوةُ الَّتي لا يَقطَعُها إلا المؤهَّلون مِن العلماءِ الصَّادقين المُنقطِعين- وهي: إلطافُ النظرِ وكثرةُ التدبُّرِ لإدراكِ الفروقِ والوجوهِ؛ لأنَّ هذا هو الَّذي خَفِيَ على الكنديِّ، وخَفِيَ مِثلُه على خلف الأحمرِ، وخَفِيَ مِثلُه على ذي الرُّمَّةِ؛ ولهذا لا يَصِلُ إليه إلا مَن تَغلغَلَ وطالَ نَظَرُه وطالَ تَغلغُلُه وكان ذا طَبعٍ، وأيضًا هذا مِن جوهرِ التَّجديدِ.

---

(١) في «دلائل الإعجاز»: ٣١٥.

ثم مضى عبدُ القاهرِ يُقدِّمُ لنا تَجرِبةً رائعةً مِن الاستقراءِ والتصفُّحِ والتتبُّعِ، ثم إلطافِ النَّظرِ، وجَمَعَ الكثيرَ مِن مواقعِ «إن»، وبيَّن لنا خصائصَها، وما تُفيدُه في الكلامِ، وذكَرَ صفَحاتٍ كثيرةً لم تُكتَب في العربيَّةِ قَبلَه، كصَفَحاتِ التقديمِ والحذفِ وفروقِ الخبرِ، ولمَّا اتَّسَعَت معاني «إن» واستفاضت قَطَعَ الكلامَ وقالَ[1]: «وليس الَّذي يَعرِضُ بسببِ هذا الحرفِ مِن الدقائقِ والأمورِ الخفيَّةِ بالشيءِ يُدرَكُ بالهُوَينى، ونحن نقتصرُ الآنَ على ما ذكرنا، ونأخُذُ في القولِ عنها إذا اتَّصَلَت بها ما».

وقد أضافَ مَن جاءوا بعدَه إلى كلِّ أبوابِ معاني النحوِ، وسَكَتُوا عن الَّذي ذكرَه في كلمةِ «إن»، ودارَ في كُتُبِهم ما قاله أبو العبَّاسِ، ثم إن الَّذي وجدَهُ الشيخُ ولم يَكشِفْهُ، وإنما قطَعَ الكلامَ دونه - لم يتطرَّق إليه أحدٌ، وكثيرًا ما يقولُ عبدُ القاهرِ مِثلَ هذا في كثيرٍ من الأبوابِ، وهذا قاطعٌ في أنه يرى في اللغةِ دقائقَ وخفايا لا تزالُ مكنونةً فيها، ولم تَستخرِجها أقلامُ أهلِ العِلمِ.

---

(١) في «دلائل الإعجاز»: ٣٢٧.

قُلتُ: إنَّ هذا المقالَ لبيانِ خُطُواتِ الَّذين جدَّدُوا، وأنَّ الكلامَ عنِ التَّجديدِ كلامٌ مُهِمٌّ جدًّا، ووصفُ خُطُواتِ المجدِّدين مُهِمٌّ جدًّا، والتَّجديدُ هو الغايةُ، ودعوتُ اللَّهَ ألَّا يكونَ كلامُنا عنِ التَّجديدِ مِثلَ كلامِنا عنِ الإصلاحِ؛ لأننا تكلَّمنا عن الإصلاحِ ولم نُصلِح، وتكلَّمنا عن محاربةِ الفسادِ ولم نُحارِبهُ، وأذكِّرُ بأنَّ كبارَ المجدِّدين كالشَّافعيِّ وابنِ سُرَيجٍ والباقلَّانيِّ كانوا من المؤسِّسين للعلومِ، وأنَّك حين تُفرِغُ على علمِ سَلَفِكَ من ذاتِ نفسِك فأنت مُجدِّدٌ، وحينَ تُفكِّرُ في المادةِ العلميَّةِ الَّتي بين يَدَيكَ فأنت مُجدِّدٌ.

وأُنهي هذه المقالةَ بأنَّ الشيخَ لمَّا انتقلَ إلى الحديثِ عن «إنَّ» إنِ اتَّصلت بها «ما» انتَقَلَ إلى نصٍّ كريمٍ جدًّا لشيخِ شيخِه أبي عليٍّ الفارسيِّ(١)، كان فيه أبو عليٍّ يبحثُ عن معنى كلمةِ «إنَّما»، فذكر كلامًا للنحاةِ وكلامًا للمفسِّرين وكلامًا للشُّعراءِ؛ لِيَستخلِصَ معنى هذه الكلمةِ، وانتهى هذا النصُّ الَّذي نَقَلَه عبدُ القاهرِ إلى أنَّ «إنما» بمَعنى «ما» و«إلَّا».

---

(١) انظر: «دلائل الإعجاز»: ٣٢٨ وما بعدها.

وبدَأَ عبدُ القاهرِ مِن حيثُ انتهى أبو عليٍّ، والَّذي فتَحَ له البابَ الَّذي بَدَأَهُ -كلمةٌ مضيئةٌ مِن قَطَراتِ النورِ الَّتي يَقذِفُها اللَّهُ سبحانه وتعالى فى قلوبِ الصَّادقين المُخلِصين مِن العلماءِ المُنقطِعين لخدمةِ اللِّسانِ الشريفِ الَّذي شرَّفَه ربُّنا وكرَّمَه؛ لمَّا أَنزَلَ به الكتابَ النَّاسخَ لكلِّ ما قَبلَه، والخاتِمَ الَّذي لن يَنسَخَهُ كتابٌ بعدَه.

هذه الكلمةُ هي أنه نَظَرَ في كلمةِ أبي عليٍّ، وأنَّ «إنما» بمَعنى «ما» و«إلَّا»، ورأى أن ثمَّةَ فَرقًا بين أن يكونَ الشيءُ بمَعنى الشيءِ، وأن يكونَ الشيءُ الشيءَ؛ يعني الفرقَ بين أن تكون «إنَّما» بمعنى «ما» و«إلَّا»، وأن تكونَ «إنَّما» هي «ما» و«إلَّا».

وهذه هي الكلمةُ المضيئةُ، واتَّجهَ إلى البحثِ في الفرقِ بينَ «إنَّما»، و«النَّفيِ والاستثناءِ»، واستَقرى وتصفَّحَ وتتبَّعَ وأَلطَفَ النظَرَ وأكثَرَ التدبُّرَ؛ فكان بابُ القصرِ الَّذي هو مِن أهمِّ أبوابِ البلاغةِ، والَّذي له مَدخَلٌ (ظاهرٌ) في التفسيرِ وفي الفقهِ وفي الأصولِ[١].

---

(١) وللمزيد يراجع كتابي «مدخل إلى كتابَي عبد القاهر الجرجاني».

وأُكرِّرُ: إنَّ الكلامَ عنِ التَّجديدِ كلامٌ سهلٌ؛ يقولُه المتَّكِئُ على أريكتِه، ويقولُه عنترةُ وعبلةُ، أمَّا شرحُ خُطُواتِ التَّجديدِ والَّذي هو الأساسُ والَّذي لا بدَّ أن نُعلِّمَهُ للجيلِ الجديدِ فإنَّه صعبٌ جدًّا، لا تَنالُه إلَّا يدُ العلماءِ المُنقطِعِينَ لهذا البابِ، لا يستطيعُ الفقهاءُ أن يَشرَحُوا لنا كيفَ جدَّدَ النُّحاةُ النَّحوَ، وإنَّما يستطيعُ ذلك مَن عاشَ للنَّحوِ، ويستطيعُه في الفقهِ مَن عاشَ للفقهِ، أمَّا الَّذين يأخُذون من كلِّ فنٍّ بطرَفٍ، فلا مَدخَلَ لهم في شيءٍ مِن ذلك، مع أنَّهم أكثرُ النَّاسِ كلامًا في ذلك.

ومِن أَوصابِ حياتِنا العِلميَّةِ أنَّه يتكلَّمُ في العِلمِ مَن ليس مِن أهلِه، حتَّى الفتوى الَّتي هي دِينٌ يَتكلَّمُ فيها مَن ليس مِن أهلِها، وندعو اللَّهَ أن يُصلِحَ أحوالَنا، وأن يُرِيَنا الحقَّ حقًّا ويَرزُقَنا اتِّباعَه، والباطلَ باطلًا ويَرزُقَنا اجتنابَه.

وآخِرُ دَعوانا أنِ الحمدُ للَّهِ ربِّ العالَمِينَ.

❁ ❁ ❁

ثَبتُ المَصادِرِ والمَراجِعِ

- «**الإصابة في تمييز الصحابة**» لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت. ٨٥٢هـ) دار هَجَر، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ.

- «**إعجاز القرآن**» لأبي بكر محمد بن الطَّيِّب الباقِلَّاني (ت. ٤٠٣هـ) تحقيق: السيد أحمد صقر (ت. ١٤١٠هـ) دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى: ١٣٧٤هـ.

- «**الأغاني**» لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني (ت. ٣٥٦هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ١٤٣٧م.

- «**الأمالي**» لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي (ت. ٣٥٦هـ) عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي (ت. ١٣٨٧هـ)، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية: ١٣٤٤هـ.

- «**الإيضاح في علوم البلاغة**» للخطيب محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت. ٧٣٩هـ) باعتناء: محمد عبد المنعم خفاجي (ت. ١٤٢٧هـ)، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، الطبعة الثالثة: ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

-«**تاج العروس من جواهر القاموس**» لمحمد مرتضى الزَّبِيدي (ت. ١٢٠٥هـ) تحقيق: مجموعة من العلماء، طبعة وزارة الأعلام، الكويت، ١٣٨٥هـ-١٤٢٢هـ.

-«**التفسير الكبير**» انظر = «مفاتيح الغيب».

-«**تلخيص المفتاح**» للخطيب محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت. ٧٣٩هـ) ضمن «**مجموع مهمات المتون**» المطبعة الخيرية، مصر: ١٣٠٦هـ.

-«**الجامع لشعب الإيمان**» لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت. ٤٥٨هـ) تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد، الرياض، بالتعاون مع الدار السلفية، بومباي، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ.

-«**الجامع الكبير**» لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة الترمذي (ت. ٢٧٩) تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٨م.

-«**الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وسننه وأيامه**» لأبي عبد اللَّه محمد بن إسماعيل البخاري (ت. ٢٥٦هـ)، بعناية: محمد زهير الناصر، مع ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار طوق النجاة، بيروت (مصورة عن الطبعة السلطانية) الأولى: ١٤٢٢هـ.

- «**جمهرة اللغة**» لأبي بكر محمد بن الحسن بن دُرَيد الأزدي (ت. ٣٢١هـ) تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ.

- «**الحماسة البصرية**» لصدر الدين علي بن أبي الفرج البصري (ت. ٦٥٩هـ) تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب، بيروت: ١٩٦٤م.

- «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم الأصبهاني (ت. ٤٣٠) مطبعة السعادة، مصر: ١٣٤٩هـ.

- «**دلائل الإعجاز**» لعبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت. ٤٧١هـ) تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر (ت. ١٤١٨هـ) مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الثالثة: ١٤١٣هـ.

- «**ديوان الشماخ**» للشماخ بن ضرار الذبياني (ت. بعد ٣٠هـ) تحقيق وشرح: صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر: ١٣٨٨هـ.

- «**الرسالة**» لأبي عبد اللّه محمد بن إدريس الشافعي (ت. ٢٠٤هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر (ت. ١٣٧٧هـ) مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى: ١٣٥٨هـ.

- «**رسالة الغفران**» لأبي العلاء المعري (ت. ٤٤٩هـ) تحقيق: عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ (ت. ١٤١٩هـ) دار المعارف، مصر: ١٣٩٧هـ.

-«**الزاهر في معاني كلمات الناس**» لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت. ٣٢٨هـ) تحقيق: حاتم صالح الضامن (ت. ١٤٣٤هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ.

-«**السنن**» لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت. ٢٧٥هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط (ت. ١٤٣٨هـ) ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ.

-«**سنن الترمذي**» انظر = «الجامع الكبير».

-«**الشعور بالعَوَر**» لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت. ٧٦٤هـ) تحقيق: عبد الرزاق حسين، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ.

-«**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**» لأحمد بن علي القلقشندي (ت. ٨٢١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٠٧هـ.

-«**صحيح البخاري**» انظر = «الجامع المسند...».

-«**صحيح مسلم**» انظر = «المسند الصحيح...».

-«**صلة تاريخ الطبري**» لعريب بن سعد القرطبي (ت. ٣٦٩ هـ) منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت (د. ت).

-«**الصلة في تاريخ أئمة الأندلس**» لأبي القاسم خلف بن عبد الملك ابن بَشْكُوال (ت. ٥٧٨هـ) تصحيح: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٣٧٤هـ.

- «**طبقات الشافعية الكبرى**» لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت. ٧٧١هـ) تحقيق: محمود الطناحي (ت. ١٤١٩هـ) وعبد الفتاح الحلو (ت. ١٤١٤هـ) دار هجر، مصر، الطبعة الثانية: ١٤١٣هـ.
- «**طبقات النحويين واللغويين**» لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت. ٣٧٩هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (ت. ١٤٠١هـ) دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٩٧٣م.
- «**العِلل الواردة في الأحاديث النَّبويَّة**» لأبي الحسن عليِّ بن عمر الدَّارَقُطنِيِّ (ت. ٣٨٥هـ) تحقيق: محفوظ الرَّحمن زَين اللَّه (ت. ١٤١٨هـ) دار طَيبة، الرِّياض، الطَّبعة الأُولى: ١٤٠٥هـ، وتكملة الكتاب بتحقيق: محمَّد بن صالح الدَّبَّاسيِّ، دار ابن الجَوزيِّ، الدَّمَّام، الطَّبعة الأُولى: ١٤٢٧هـ.
- «**العلل المتناهية في الأحاديث الواهية**» لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت. ٥٩٧هـ) تحقيق: إرشاد الحق الأثري، إدارة العلوم الأثرية، باكستان: ١٤٠١هـ.
- «**غريب الحديث**» لابن قتيبة (ت. ٢٧٦)، تحقيق: عبد اللَّه الجبوري، مطبعة العاني، بغداد الطبعة الأولى: ١٣٩٧هـ.
- «**فتح الباري بشرح صحيح البخاري**» لابن حجر العسقلاني (ت. ٨٥٢هـ) بعناية: محب الدين الخطيب (ت. ١٣٨٩هـ) وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي (ت. ١٣٨٨هـ)، وعلق على المجلد

الأول والثاني منه: عبد العزيز بن باز (ت. ١٤٢٠هـ) المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٣٨٠هـ.

-«**فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب**» لشرف الدين الحسين بن عبد اللَّه الطيبي (ت. ٧٤٣هـ) تحقيق: مجموعة من الباحثين، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الإمارات، الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

-«**القوس العذراء وقراءة التراث**» لمحمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ.

-«**الكتاب**» لعمرو بن عثمان بن قنبر، المعروف بسيبويه (ت. ١٨٠هـ) تحقيق: هرتفيك درنبور - Hartwig Derenbourg (ت. ١٩٠٨م) المطبع العامي الأشرف، باريس: ١٨٨٥م.

-«**الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**» لأبي القاسم محمود الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي، بيروت: ١٤٠٧هـ.

-«**الكُلِّيَّات**» لأبي البقاء أيوب بن موسى الكَفَوي (ت. ١٠٩٤هـ) تحقيق: عدنان درويش (ت. ١٤٣٥هـ)، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ.

-«**متشابه القرآن**» للقاضي عبد الجبار (ت. ٤١٥هـ) تحقيق: عدنان زرزور، دار التراث، القاهرة: ١٩٦٩م.

-«**المسند**» لأبي عبد اللَّه أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت. ٢٤١هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط (ت. ١٤٣٨هـ) وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ.

-«**المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم**» لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت. ٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (ت. ١٣٨٨هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٥٥م.

-«**المطوَّل شرح تلخيص المفتاح**» لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت. ٧٩٣هـ) مع «**فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح**» لعبد الرحمن الشربيني (ت. ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م) تصحيح: إبراهيم بن حسن الطباخ، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، مصر، الطبعة الأولى: ١٣٢٣هـ.

-«**المعارف**» لأبي محمد عبد اللَّه بن مسلم بن قُتيبة الدِّينَوري (ت. ٢٧٦هـ) تحقيق: ثروت عكاشة (ت. ٢٠١٢م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطَّبعة الثَّانية: ١٤١٢هـ.

-«**المعجم الكبير**» لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت. ٣٦٠هـ) تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي (ت. ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م) مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطَّبعة الثَّانية: (د. ت).

-«**مفاتيح الغيب**» لأبي عبد اللّٰه فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت. ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢٠هـ.

-«**مناقب الشافعي**» لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت. ٤٥٨هـ) تحقيق: السيد أحمد صقر (ت. ١٤١٠هـ) دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٣٩٠هـ.

-«**الوافي بالوفيات**» لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت. ٧٦٤هـ) تحقيق: أحمد الأرنؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت: ١٤٢٠هـ.

الفِهرسُ التّفصيليّ لموضوعاتِ الكتابِ

something else. Therefore, Tajdīd is very necessary for Muslim scholars to get the right understanding of religion as there will always be a group of scholars that will be triumphant upon the truth defending the claims of people, who exaggerate in religion and those who are negligent.

Fierce campaigns, throughout the history, were launched against religions. They always gave distorted ideas about it, not included in the materials and are very harmful. Despite the fact that Allah has vowed to safeguard His Book and the Sunna by honest and sincere scholars, we need to expand in using the qiyās (analogy) which has played a central role in revolve the religion. One of the inimitability aspects of Islam that it facilities the people life and does not make it difficult. In addition, it provides people with the proper ways to progress. The most significant aspect of inimitability of Quran that it brings people out of the darkness into the light, God says in the first verse of Surat Ibrahim (A Book We have sent down to you that you may bring mankind out of the darkness(es) to the light) "Ibrahim 1." If we consider the darkness in which people, groups and nations live, we will conclude that ignorance, poverty, repression, oppression, tyranny, injustice, disease, defeats, backwardness, and all the related vices and defects in which the backward countries people live are different forms of darkness

Light is completely contrary to that, knowledge, justice, cooperation, love, liberty, consultation, strength, independency, advancement, loyalty, benevolence, and security are various forms of light. As such, the best way to renew the religious discourse is the good understanding of Allah's religion. This religion is constantly flexible and responding to the new changes. The renewal represents the religion's strength and validity beyond times and places. Consequently, we are in dire need of understanding the religion properly. The religion must be a method of renewal of our hearts and insights. These facts must be known to all Muslims whether laymen or scholars. It is good and better that the call for renewal of religious discourse is associated with the renewal of our scientific life. We need a great number of scholars in areas of fiqh (jurisprudence), tafseer (interpretation) and hadeeth (prophetic tradition), who are engaged completely in renewal of these areas of knowledge. Likewise, we need a great number of scientists in the areas of mathematics, chemistry, medicine, physics, engineering, economy, and other branches of science who are engaged completely in renewal of these fields of knowledge. They are as necessary for the life of nation as the fiqh, tafseer, and hadeeth. The existence of those scholars and scientists are indispensable in our life.

Introduction

Praise be to Allah. Allah's peace and blessings be upon His Prophet Muhammad Ibn Abdullah and upon his family and companions!

Indeed, Muslims are in a pressing need for tajdīd (renewal) today than ever before. There have been certain unfamiliar values and behaviors incompatible with the true teachings of Islam that penetrated many aspects of Muslim people and are increasingly woven into everyday life. Intellectual and cultural currents have recently permeated and increasingly dominated the Muslim community. This is primarily due to the long-standing disregard of teaching the Islamic fundamentals in creeds and ethics in educational curricula for all ages. However, this neither makes a heavy burden nor takes the entire student's time.

It is developed to save the young generations from the hazards and immune them against the temptations of devils and wicked people, who try to convince them to take up arms. They are working hard to lure teenagers and manipulate the natural desires of young minds and convince them that if they kill the innocent and ruin their country, they will go to the paradise. If there is no matter other than such calamity, it is enough to motivate us to do more and to take care of the education for bringing up new generations.

Muslims are actually in an urgent need for Tajdīd more than any time in history due to many reasons I have already mentioned them. For scholars—and as the linguistic meaning asserts, Tajdīd is defined as reviving the works and deeds in reliance on the true teachings of the religion of Allah to remove suspicions, confusions, and ignorance from minds about the concepts of religion. Religion itself is basically ever-renewing and fresh; it was revealed as a miracle by the Almighty Allah to the entire humankind; suitable for all times and places, and for every culture and civilization.

Tajdīd, in no way, can add to the religion anything alien to the religion. Therefore, Muslims have unanimously agreed that the renewal, as an effective way of evidence, shall be derived from the Book of Allah and the Sunnah of His Mesh senger with the necessity of excluding Bid'ah (innovation) and misguidance that could lead to misunderstandings. Islam is the last religion that existed from the beginning of human creation on earth and will continue its existence insomuch as man exists on this planet. Islam is found in almost every part of the world. The Prophet (Allah's peace be upon him) said, "This matter (Islam) will keep spreading as far as the night..." it keeps spreading as night. If so, it may be thought



UAE
B.O. Box 769564 Abu Dhabi
Tel: +971 2307 3777
Fax: +971 2441 2054
Email: info@muslim-elders.com
Website: www@muslim-elders.com

GEBO Indexation for the National Book and Documentation House
Egyptian National Library and Archives:
Muhammad Muhammad Abu Musa
Introductions to Renewal of religious Sciences

Size, 15 x 23 cm
Number of pages: 412

DRN: 28820/2017
ISBN: 978-977-6601-23-9

3rd edition by MCE
1440 H. / 2019

Printed:
Dar Al Quds Alarabi
Email: dar.quds@gmail.com

Design: Media Pictures Adv.
Tel.: +20 111 33 54001
Email: wael.hasan86@gmail.com

Arabic Text Printed and Edited by
Revival of Islamic Heritage Bureau,
Al-Azhar Sheikhdom Headquarter

Translated by
Al-Azhar Center for Translation
(ACT)

Mashykhat Al-Azhar
Office of the Revival
of Islamic Hertiage

(This book is sold at cost and its return is dedicated to printing
the books of the Sunnis and the community)

Views in this book do not necessarily express the MEC's views

No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in way any form or by any means, electronic, mechanical, recording or otherwise, without the permission of the Muslim Council of Elders (MCE)

Mashykhat Al-Azhar
Islamic Culture Books Series
No.: (4)



Keys to Religious Renewal

By
Professor
Muhammad Muhammad Abu Musa
Member of Al-Azhar Council of Senior Scholars

